سؤال الأخلاق
في مشروع النورسي

بسم اللّٰه الرحمن الرحيم

جمعية النبراس الثقافية بوجدة- المملكة المغربية

و مركز بحوث رسائل النور باستانبول

ندوة دولية



في مدينة وجدة (المغرب)

أيام: ١ – ٢ – ٣ جمادى الأولى ١٤٢٨ هـ

١٨ – ١٩ – ٢٠ ماي ٢٠٠٧م

مدخل

الحمد لله الذي خلق كل شيء فأحسن خلقه وترتيبه، وأدب نبينا محمدا ﷺ فأحسن تأديبه، وبعد.

فإن مكارم الأخلاق صفة من صفات الأنبياء والصديقين والصالحين، بها تُنال الدرجات، وتُرفع المقامات. وقد خص الله جل وعلا نبيه محمداً ﷺبآية جمعت له محامد الأخلاق ومحاسن الآداب فقال جل وعلا: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾(القلم: ٤)

وحُسن الخلق يوجب التحاب والتآلف، وسوء الخلق يُثمر التباغض والتحاسد والتدابر .

وقد حث النبي ﷺ على حسن الخلق، والتمسك به، وجمع بين التقوى وحسن الخلق، فقال عليه الصلاة والسلام: (أكثر ما يدخل الناس الجنة، تقوى الله وحسن الخلق) رواه الترمذي والحاكم.

وحُسن الخُلق: طلاقة الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى عن الناس، هذا مع ما يلازم المسلم من كلام حسن، ومدارة للغضب، واحتمال الأذى.

وأوصى النبي ﷺ أبا هريرة رضي الله عنه بوصية عظيمة فقال: (يا أبا هريرة! عليك بحسن الخلق. قال أبو هريرة رضي الله عنه: وما حسن الخلق يا رسول الله؟ قال: تصل مَنْ قطعك، وتعفو عمن ظلمك، وتُعطي من حرمك). رواه البيهقي.

وتأمل أيها القارئ الكريم، الأثر العظيم والثواب الجزيل لهذه المنقبة المحمودة والخصلة الطيبة، فقد قال ﷺ: (إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم) رواه أحمد.

وعدَّ النبي ﷺ حسن الخلق من كمال الإيمان، فقال عليه الصلاة والسلام: (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً) رواه أحمد وأبو داود.

وعليك بقول رسول الله ﷺ: (أحب الناس إلى الله أنفعهم، وأحب الأعمال إلى الله عز وجل، سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي ديناً، أو تطرد عنه جوعاً، ولئن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحب إليَّ من أن أعتكف في المسجد شهراً) رواه الطبراني.

والمسلم مأمور بالكلمة الهيّنة الليّنة لتكون في ميزان حسناته، قال عليه الصلاة والسلام: (والكلمة الطيبة صدقة) متفق عليه. بل وحتى التبسم الذي لا يكلف المسلم شيئاً، له بذلك أجر، (وتبسمك في وجه أخيك صدقة) رواه الترمذي.

ولكن ما صاحب من محاولات تنميط العالم ومركزته حول الهوية الغربية وما تبع ذلك من اعتداءات مباشرة وغير مباشرة على الخصوصيات الثقافية والدينية والاقتصادية للمجتمعات، في ظل هذا الوضع المشحون بالتوتر يبرز سؤال الأخلاق على رأس القضايا التي باتت تؤرق المفكر المعاصر سواء أتعلق الأمر بعلاقة الأخلاق بالسياسة أم بالحرب أم بالسلم أم بالاقتصاد أم بالتنمية.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: ما الأخلاق؟

لم يعد مفهوم الأخلاق في هذا الزمان كما كان القدماء يفهمونه على أنه مجموعة من الفضائل والقيم النفسية. فإنسان اليوم يراها في أغلب الأحيان أمورا تتعلق بالذوق أو التربية الإيمانية واللباقة في المعاملة. وحتى هذه الحالات لم نعد نراها حيث فسد الذوق واختلت الفضائل النفسية والاجتماعية.

إن ما يعيشه المجتمع اليوم، من فتن وآفات اجتماعية تحيط بالإنسان إحاطة السوار بالمعصم قاسمها المشترك هو الضمور الأخلاقي إن لم نقل انعدامه في كثير من مناحي الحياة الإسلامية المعاصرة، لذلك أصبح على المؤسسات الأهلية والجمعيات ومؤسسات المجتمع المدني أن تبادر إلى إثارة موضوع

الأخلاق عبر طرح أسئلة جريئة وإجابات عينية دقيقة تلامس إشكالات الواقع الذي يزداد تعفنا يوما بعد يوم، وفي سياق سؤال الأخلاق الملح واستجابة للظرف الأخلاقي المتردي وانسجاما مع خطها الإصلاحي والتربوي والثقافي والتوعوي نظمت جمعية النبراس للثقافة والتنمية بوجدة بتعاون مع مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية بوجدة ومركز إستانبول للثقافة والعلوم بتركيا ندوة دولية في موضوع:

"سؤال الأخلاق في مشروع الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله تعالى"

تحت شعار: قول الرسول ﷺ: "إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق".

يعد الأستاذ النورسي رحمة الله تعالى عليه من أبرز رواد الحركة الإصلاحية والتربوية والإسلامية في القرن العشرين، كما يعتبر مشروعه التربوي من أنجح النماذج وأكثرها تأثيرا في الواقع الإسلامي، يقول الأستاذ معرفا الأخلاق: "هي نظام القرآن الذي يطبع صورة الروح الإنسانية بماهيتها ويسلك بها مدارج التربية والمجاهدة لاكتساب معناها الكوني.

ومن ثم فالمنظومة الأخلاقية التي وضع أسسها الأستاذ النورسي تستوحي الأخلاق القرآنية والأخلاق المحمدية جميعا، ولذلك فهي تتسم بالعموم والكونية والشمولية، فقد شملت علاقة الإنسان بخالقه وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان وعلاقة الإنسان بكل عناصر الكون ومكوناته. وتأتي هذه الندوة الدولية إسهاما من الجمعية في تنوير الجمهور المغربي وتعريفه بهذا العلَم الإسلامي وبفكره الموسوعي المتعدد المجالات والعطاءات الإنسانية، كما تهدف الندوة إلى تأكيد المثال الروحي للعالم الإسلامي وترابط جسديته من تركيا إلى المغرب.

والله ولي التوفيق

اللجنة المنظمة

مبادئ الإنسانية وتحديات العصر في نظرية سعيد النورسي

أ. د. تسفيتان تيوفانوف
جامعة صوفيا
بلغاريا

لا ريب أن عنوان هذا المؤتمر قد تم اختياره استجابة لمقتضيات وضع معقد نعيشه، ومرحلة متميزة نمرّ بها في عصر العولمة المفسدة والأخلاق السيئة. لقد سادت في أواخر القرن الماضي نظريات حالمة مستبشرة بما سوف يُنْعَمُ به سكان المعمورة في القرن الواحد والعشرين من رَفاهية وأمن وسعادة، ولقد انبعث هذا التفاؤل نتيجة لشعور البعض بأن انتصار المعسكر الغربي الليبرالي أصبح بديهيا، فبعد سقوط الكتلة الاشتراكية، وفشل سياستها، وتقزم دعاتها، بعد كل هذا لم يعد هناك – في ظنهم – نظام قادر على أن يكون بديلا ضامنا وضابطا لمسيرة الإنسان مثل الليبرالية الغربية.

وفي هذا السياق – سياق الأحادية الليبرالية، والنزعة الشوفينية – يتساءل أحد خريجي المدرسة الغربية، وهو (فرانسيس فوكوياما) يتساءل متحديا: هل هناك في الواقع الإنساني بعض التناقضات الأساسية التي لم تلق حلا، أوجوابا في الإطار الليبرالي الحديث؟ والجواب كان طبعا بالنفي، ذلك لأن في دولة

نهاية التاريخ (وهو اسم الكتاب الذي يضم هذه النظرية) دولة (فوكوياما) كل الرغبات سوف تلبى، كل ما يتمنى المرء يدركه، لن يكون فيها صراع حول المشاكل الكبرى، ولا حاجة إلى المؤسسات العسكرية ولا إلى رجال الدولة، ولن يبقى إلا شيء واحد يشد الناس ويجمعهم هو النشاط الاقتصادي وتحقيق الوفرة الاستهلاكية. وقد أظهرت مطالع القرن الواحد والعشرين، كم كانت هذه النظريات والتنبؤات بعيدة عن واقع الإنسان وفطرته وتطلعاته بكل ما تحمله كلمة "إنسان" من دلالات وأبعاد اجتماعية وروحية وعاطفية، وبكل ما تعنيه كلمة "تطلعات" من معاني الخير والسعادة والسلام والتعاون والوئام. ذلك أن هذه الأنظمة والمنظمات الاقتصادية والتجارية التي يبشر بها دعاة العولمة: في جوهرها نظم رأسمالية تطغى عليها لغة الرِّبْح والخسارة، وتوجهها المؤسسات المالية الضخمة والاعتبارات المادية بمنطقة لا مكان فيها للعاطفة أوالفطرة الإنسانية ولا للدين والأخلاق.

لا جَرَمَ أن الذي يتصفح مؤلفات الأستاذ ويتعمق في تأملاته يلاحظ اهتمامه البالغ بدور الإنسان ومنزلته العالية ومبادئ الإنسانية في ظل تحديات العصر. وقد وضَّح النورسي أسباب عنايته بهذه المسألة قائلا: "لقد تيقّظ الإنسان في عصرنا هذا، بفضل العلوم والفنون ونُذر الحروب والأحداث المُذهِلة، وشعر بقيمة جوهر الإنسانية واستعدادها الجامع، وأدرك أن الإنسان باستعداده الاجتماعي العجيب لم يُخلق لقضاء هذه الحياة المتقلّبة القصيرة، بل خُلق للأبد والخلود، بدليل آماله الممتدة إلى الأبد. وان كل إنسان بدأ يشعر – حسب استعداده – أن هذه الدنيا الفانية الضيقة لاتسع لتلك الآمال والرغبات غير المحدودة..."(١)

(١) الخطبة الشامية، ٣٣

إن الأستاذ النورسي القرآني العقيدة الذي قد سَمَّى نفسه بخادم القرآن استوعب معنى الإنسانية ومبادئَها ضمن وعي قرآني كوني مفتوح على العالمية. فكان الأستاذ يشرح ويكرر أن "ما يُطلق عليه بالإنسانية التي هي قصيدة حكيمة منظومة تعلن إعلانا لطيفا جميع تجليات الأسماء الإلهية القدسية، وهي مُعْجِزَة قدرة باهرة جامعة كالنَّواة لأجهزة شجرة دائمة باقية". فخطاب الأستاذ التجديدي كان يتوجه إلى الإنسان باعتباره صنعة خارقة للخالق الصانع وأرقى معجزة من معجزات قدرته وألطفَها وكائنا كونيا أو عنصرا جوهريا من عناصر العوالم المخلوقة ونسخة جامعة للكائنات وخلاصة الكون وفهرسته الجامع. ويرى الأستاذ في مخلوقية الإنسان معجزة إلهية فقال: "كذلك الإنسان الذي هو ثمرة شجرة الكائنات، إذ المقصود من إيجادها إنما هو الإنسان، وغاية إيجاد الموجودات هي الإنسان، وبَذْرة تلك الثمرة قلب الإنسان، وهو أنور مرآة للصانع الجليل وأجمعُها". ويكرر الأستاذ هذه الفكرة في رسائل مختلفة مؤكدا أهميتها في رؤيته الإنسانية: "إن الإنسان هو الثمرة النهائية لشجرة الخِلْقة، ومن المعلوم أن الثمرة هي أبعد أجزاء الشجرة، وأجمعها وألطفها؛ لذا فإن الإنسان هو ثمرة العالم، وأجمع وأبدع مصنوعات القدرة الرَّبَّانية، وأكثرها عَجْزا وضعفا ولطفا". و"خلقه الباري مظهرا لجميع تجليات أسمائه الحسنى، وجعله مَدَارا لجميع نقوشه البديعة جلّت عظمته، وصيّره مثالا مصغرا ونموذجا للكائنات بأَسْرها".

لقد ارتكزت روحية رسائل النور على الاعتقاد بأن الإنسان أهمّ مخلوقات الله، وأن جميع الأنشطة البشرية لا بدّ وأن تؤدي إلى سعادته ورَفاهيته، وأن كل عمل يقصد به تحقيق هذه الغاية، هو عمل في سبيل الله، أي عمل إنساني في المقام الأول. إن الإنسان كائن طموح محدود القدرات عظيم التطلعات، ولعلمه

بمحدوديته التي تعارض تطلعاتِه، نجده دائماً يَهْرُبُ من التفكير في تصرفات الدهر والموت ويتهرب من هذا الواقع المحتوم، ليعيش آماله ولوفي عالم الخيال ويسعى طول حياته في سبيل تحقيق الخلود. هذا والذي يجعل من هذا الكائن الطَّمُوح، كائنا دائم الوجود ودائم البقاء، ويَضْمَنُ له طاقات أوسع لتحقيق طموحاته الكبيرة في هذا العالم الفاني، ويصل وجوده بذلك العالم الباقي هو الله تبارك وتعالى. وقد يُضْطَرُّ الإنسان في أكثر الحالات للبحث عن قوة عليا يتجاوز بواسطتها إطار محدوديته ويلجأ إليها ليُعَوِّضَ عن إحساسه بالعجز عن تحقيق الأمان والاستقرار الذي يلازم تفكيره، وقد يكون بحثه عن هذه السعادة بعقله وقد يكون في أكثر الأحيان بعاطفته، إلا أن الطريق الصحيح لذلك ولتحصيل السعادة والكمال واجتياز المحدودية اليائسة إلى عالم البقاء عن طريق الالتزام بالدين الذي هو هداية الله للإنسان وعنايته به. ويشير الأستاذ إلى هذه الفكرة بقوله: "إن الإنسان مع صِغَر جِرْمه وضعفه، وكونه حيوانا من الحيوانات؛ ينطوي على روح غالية، ويحتوي على استعداد كامل، ويتبطن ميولات لا حَصْر لها، ويشتمل على آمال لا نهاية لها، ويحوز أفكارا غير محصورة، ويتضمن قوى غير محدودة، مع أن فطرته عجيبة كأنه فهرست للأنواع والعوالم".

وما زال الأستاذ يذكرنا بأن الله تعالى كرم الإنسان بالخلافة، وعلمه أسماء الأشياء كلها، يعني الأسماء الحسنى، وهو العلم الذي تفوق به على الملائكة، فلقد خص الإنسان في خلقه بالعقل والإرادة في وسطية جامعة بين مادة خالية من الوعي والإرادة، وبين روحية ملائكية بريئة مُمَحَّصة في إرادتها للخير، وهذا المعنى الجامع في الإنسان بين المادة والروح كان من ثمراته الوعي، والروحية، والإرادة المهيأة للاختيار بين السمو إلى أفق الملائكة، وبين الهبوط إلى عالم الماديات، ولقد أهلّه لهذه المهمة ما أودع الله فيه من قدرات ومهارات، أهمها

العقل الذي هو مناط التكليف، لما خص به من قدرة على الاستيعاب لما هو غائب عن الإنسان من الحقائق. وهو ما تتحقق به السيطرة على البيئة الكونية، إذ يستطيع الإنسان بفضل هذه القدرات أن يُكَيِّف حياته في منع ما يضره واستثمار ما ينفعه، وهي عملية قابلة للاطراد لدى الإنسان لإنجاز الخلافة في الأرض، وهي الغرض من الوجود: "إن الإنسان من جهة الفعل والعمل وعلى أساس السعي المادي حيوان ضعيف ومخلوق عاجز، دائرة تصرفاته وتملكه في هذه الجهة محدودة وضيقة [...]، إلا أن الإنسان من جهة الانفعال والقبول والدعاء والسؤال ضيف عزيز كريم في دار ضِيافة الدنيا، قد استضافه المولى الكريم ضيافة كريمة حتى فتح له خزائن رحمته الواسعة وسخَّر له خدمه ومصنوعاته البديعة غير المحدودة"[٢].

ولم يعد حياة الإنسان أحقابا تائهة في بحر الزمان تثير مشاعر الفقدان والحسرة على الأيام الخالية، فالقرآن الكريم في معظم سوره وسياقاته يربط الواقع بالغيبيات، ويلبي حاجة الإنسان إلى البحث عن الحقيقة، إلى الصراع مع عوامل الهدم، على العمل الدائم للتغيير نحو الأفضل، إلى معطيات الأمن والاستقرار، إلى فردوس يحقق الأمن والاستقرار للذات التي فقدت الأمن والاستقرار.

إن استخلاف الإنسان في الأرض ليس مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم إنما هو ذلك كله على شرط استخدامه في الإصلاح والتعمير والبناء، وتحقيق المنهج الذي رسمه الله للبشرية كي تسير عليه، وتصل عن طريقه إلى مستوى الكمال المقدر لها في الأرض، اللائق بخليقة أكرمها الله. إن الاستخلاف في الأرض في نظر الأستاذ النورسي يعني القدرة على العِمارة والإصلاح، لا على

(٢) الكلمة الثالثة والعشرون، ص ٣٦٥

الهَدَم والإفساد، والقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة، لا على الظلم والقهر، والقدرة على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشري، لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارك الحيوان.

إن الغاية من استخلاف الله لهذا الكائن الذي هو الإنسان على هذا الكوكب تُجَلِّيه غاية التجلية الآية الكريمة التالية: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (سُورَةُ البَقَرَةِ : ٣٠)

لقد فهمت الملائكة تلك الغاية من خلال علمها بمراد الله من إيجاد الخلق كما قررت ذلك الآية وذلك هو تسبيح الله وتقديسه بدلالة قولهم النافي للحاجة إلى خليفة في الأرض ما دام التسبيح والتقديس قائماً، وأحقية المسبحين والمقدسين بالخلافة دون غيرهم، وهذه الغاية – أعني التسبيح والتقديس – هي رسالة الإنسان في هذا الوجود بأكملها وهي مسؤوليته على هذه الأرض، وهي منهج سعادته، ومحتوى عهده وميثاقه مع الله، فالتسبيح هو التنزيه الذي هو لب التوحيد المقتضى لنفي الشرك، والمقتضى للاستهانة بكل طاغوت وصنم ومقدّس غير الله مما لم يأمر بتقديسه.

فبالتسبيح تُسقط الإنسانية شوائب النقص ومظاهر الفساد من حياتها بعد أن تُنزِّه معبودها عنها وتَنْفِيها عنه، وبالتسبيح تنمو في الإنسانية روح الاتجاه إلى الكمال المطلق، وتشعر بالاتجاه نحوه والسعي إليه، وبالتسبيح لله وحده يعلن الإنسان تحرره من عبوديات الأرض وطواغيت البشر.

وبالتقديس تعظم الإنسانية الكمال الإلهي، وتراه غاية قُصْوَى تسعى نحوه على هذه الأرض لتَصُوغ من إنسانيتها صيغة تتشرف وتسمو بعبادة هذا المعبود المقدس، وتتفيأ ظلا يحاكي ذلك الملكوت في البعد المقدس، وظلا يحاكي

ذلك الملكوت في البعد عن الشر والفساد، لتقديم في أعماقها موازنة الحساب بين غايتها العليا التي تشدّها إليها ودوافع التقديس والتسبيح وتوافه الحياة ونوازع الفساد التي تُلِحّ عليها بالخروج على هدف الاستخلاف ومسؤولية الخلافة الموكَّلة للإنسان.

إن القرآن ربط ربطا موضوعيا بين خلافة الإنسان في الأرض وقيام الحكم والسياسة على أساس مبادئ الحق والعدل، فجعل الحكم بالحق هدفا أسمى من أهداف الخلافة الإنسانية في الأرض وجانبا مهما من جوانب تحققها، لأن الحكم في نظر القرآن هو إحقاق لمبادئ الحق والعدل، وتطبيق لإرادة الخير في كل المبادئ والأهداف.

إن أهم الشروط التي يتأهل بها الإنسان لأن يكون خليفة الله في أرضه: الإيمان، ذلك الإيمان الذي يستغرق النشاط الإنساني كله، بخواطر نفسه، وخلجات قلبه، وأشواق روحه، وميول فطرته، وحركات جسمه، ولفتات جوارحه، وسلوكه مع ربه. إن الإيمان الذي يؤهل الإنسان لتلك الخلافة هو ذلك الإيمان المتمثل في منهج حياة كامل، يتضمن كل ما أمر الله به، ويدخل فيما أمر الله به: توفير الأسباب، وإعداد العدة، والأخذ بالوسائل، والتهيؤ لحمل الأمانة الكبرى التي هي لب العمل الصالح. والعمل الصالح هو الذي يكون مُنْطَلقه قاعدة الإيمان، فبدون الإيمان لا يعد العمل شيئا مفيدا حتى ولو كان صالحا، كما أن الإيمان لا يتبلور في الواقع المنظور وفي ساحة الوجود إلا إذا أبرزه العمل الصالح، فهما جناحان متوازيان لا يُحَلِّقُ الإنسان إلى مستوى المسؤولية – مسؤولية الاستخلاف في الأرض – بدونهما معا، وهما تياران متعادلان كالمُوجَب والسالب يُحَوِّلان إرادة الإنسان والتي هي من أخص خصائص الإنسانية إلى أفعال نبيلة يسعد بها عالم المخلوقات، وفي مقدَّمة من

يسعد بها هذا الإنسان الذي هو ميدان المعركة بين الخير والشر في هذا الوجود، وهو وحده الخاسر والرابح.

ولا تتحقق الخلافة الإنسانية على ما اسْتُخلِف عليه الإنسان على أكمل وجوهها، وفي أجمل صورها، وأوسع معطياتها، وأثبت ما يكون من دعائمها إلا بأمرين أساسيين، فإذا فُقدا معا انعدمت تلك الخلافة ولم يُعْثَرُ لها على أثر، وبوجود أحدهما بدون الآخر توجد شَوْهاء منقوصة ليس لها في الحياة دور مؤثر وإن ارتفعت أعلامها إلى حين أو برزت معالمها في مكان.

أول الأمرين الأساسيين: الإيمان باعتباره صلة بالله، الصلة التي تُؤَمِّنُ للحياة مُقوَّماتها، وتُضْفِي على كل من المستخلَف والمستخلَف عليه الجمال والكمال، وهذه الصلة لا يمكن أن تتجسد أو تتبلور إلا حيث النظافة والطُّهْر والنَّماء، حيث التزكية، تلك التزكية التي تعنى تطهير الضمير والقلب والشعور والخواطر والنفس في كل أغوارها، وتلك هي تزكية الباطن، كما تعنى تطهير السلوك والعلاقات المؤدية إلى تطهير الأعراض والقيم والجوارح وسائر الارتباطات، وتلك تزكية الظاهر، إن التزكية أول مبدأ من مبادئ الرسالة التي جاءت لترتفع بالإنسانية من دركاتها وسفوحها التي طالما تردّت فيها وتَمَرَّغَت في أوحالها تلك الرسالة التي جاءت لتضع أقدام الإنسانية على الجادّة حِيَالَ تلك الخلافة لتؤهله لها. إن أول ما يطالعنا في بيان مبادئ هذه الرسالة: التزكية التي تعني أكثر من تحصيل النمو والتربية الصحيحة على أقوم منهج والطهارة النقية الشاملة.

إن الإنسان المزكّى هو الذي يتم تخليصه وتنقيته من كل المُعَوِّقات التي تحول دون اضطلاعه بمهام الخلافة سواء أ كانت تلك المُعَوّقات أمراضا جسمية أم أمراضا عقلية ونفسية أم روحية وخلقية. وقد ذكر الأستاذ النورسي في الخطبة الشامية أمراض البشرية الاجتماعية وقام بتحليلها، وتلك الأمراض هي: "حياة

اليأس الذي يجد فينا أسبابه وبعثه؛ موت الصدق في حياتنا الاجتماعية والسياسية؛ حبّ العداوة؛ الجهل بالروابط النورانية التي تربط المؤمنين بعضهم ببعض؛ سَرَيَان الاستبداد، سريان الأمراض المعدية المتنوعة؛ حَصْر الهَمَّة في المنفعة الشخصية. وكان الأستاذ يتحدث في اغلب دروسه عن الأُخُوَّة والإخلاص. فكان يشخص مرض زماننا هذا بالغرور والأنانية وحب النفس. وكل صلة مُنْبَتَة عن الصلة بالله ففيها شيء من التطهير والشِّفاء من هذه الأمراض. وما أنزلت الكتب ولا أرسلت الرسل إلا لتزكية الإنسان وتطهيره وتصفيته وتنقيته من كل بادرة شر أو شائبة رذيلة.

أما الأمر الثاني، فإنه العلم، بكل معطياته وأبعاده وآفاقه الواسعة وأرجائه الفسيحة. إن التنويه بشأن العلم وإبراز اعتبار دين الإسلام إياه أقوى ركائز الاستخلاف ودعائمه. وإذا لم يكن بُدَّ من الإشارة إلى حكمة ذلك، فما علينا إلا أن ندرك – ولو بإطلالة – الحجة والبرهان على الملائكة في الحوار معهم على أحقية هذا الإنسان بالخلافة، حيث قال الحق سبحانه: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (سُورَةُ البَقَرَةِ : ٣١-٣٣)

إن الملائكة الكرام لما أدركوا ما عسى أن يصدر عن هذا الخليفة من تدمير وهدم وإفساد وإزهاق للأرواح إما بإبهام من الله أو بشواهد من الحال أو إدراك نابع من تجارب سابقة لما أدركوا قصور هذا الخليفة أو تقصيره المتوقع بما ركب فيه من ميل إلى الإفساد لم يُقِم الله سبحانه عليهم الحجة على أحقية الإنسان بالخلافة وتأهله لها بأن ينزهه عن تلك العيوب، أو تكون فطرته

كفطرتهم لا تعرف إلا الخير ولا تألف إلا الطهر، وإنما أقام عليهم الحجة على تلك الأحقية بأنه سيكرمه بالعلم الواسع الآفاق المتجدد العطاء، فسلّوا وأذعنوا مستخدمين نفس الأسلوب في التعبير، مكررين كلمة العلم ومشتقاته: : ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (سُورَةُ البَقَرَةِ: ٣٢) والعلم والحكمة قرينان حيث وجد هذا وجد الآخر، وذلك بصرف النظر عن كيفية ذلك التعليم أو سعة ذلك العلم الحاصلين في أروع حفل لتكريم الإنسان الذي أُمِر الملائكة فيه بالسجود له إجلالا وإكبارا بعد نفخة الله فيه من روحه.

ومثلما منَّ الله سبحانه وتعالى على الإنسان باستخلافه إياه في الأرض، فإنه عرض عليه الأمانة، وهي فضيلة جليلة وخطيرة لحاجة البشر إليها. ومن الجدير بالذكر أن الخالق سبحانه لم يبدأ بعرض الأمانة إشفاقا منه على البشر، فعرضها منذ البداية على السموات بما حوت من الكواكب، وعلى الأرض بما حفلت من براكين وبحار وأنهار، والجبال بما حملت وتحملت، فأبت السموات والأرض والجبال خوفا من خطر الأمانة وأهميتها عند الخالق ومخلوقاته، وإشفاقا على كونهن من الرسوب في الامتحان، وعدم الاستطاعة بالوفاء بتحملها، فعرضها المولى على الإنسان، وكان الإنسان في حِلّ من عدم قبول العرض، وما كان الله ليعاقبه على ذلك فقد أبى حملها من هُنَّ أقدر على ذلك منه، ولكنه حملها لأنه ظلوم جهول.

ولا ننسى أن النورسي عاش في عصر تأجج فيه الصراع الحضاري بين الغرب والشرق بصورة قاسية وقد انعكست في مرآة العالم الإسلامي الآثار السلبية لانتشار المقوّمات والتقاليد والأفكار والفلسفات المادية الغربية على مستوى العلاقات الاجتماعية والأخلاق البشرية والمدنية والعَلمانية المُعادية لمبادئ القرآن الإنسانية. وكان الأستاذ يدرك أن هذا الصراع الحضاري في

جوهره يكشِف التصادم بين موقفين ومذهبين أساسيين، هما الكفر الذي يعبد القوة ويسعى إلى التخضيع، والإيمان الذي يعتمد على السماحة والمحبة واحترام الآخرين باعتبارهم أبناء آدم. ونتيجةً لهذين الاتجاهين ظهر نوعان ونموذجان إنسانين، هما إنسان قرآني وإنسان فرعوني، وكل واحد منهما يختلف تماما عن الآخر.

فنحن لو أخذنا منهم المدنية - بسوء حظنا وسوء اختيارنا - بما يوافق الهوى والشهوات - كالأطفال - تاركين محاسنها التي تحتاج إلى بذل الجهد للحصول عليها، نكون موضع سخرية كالمخانيث او كالمترجلات، إذ كيف إذا لبست المرأة ثياب الرجل ولبس الرجل ثياب المرأة يكون كل منهما موضع سخرية واستهزاء. ألا ما يكون لنا ان نتجمل بمساحيق التجميل...

فالتغريب هيأ الأوضاع التي تشكلت فيها شخصية الفرد المستلب وقرر مزاياه الغرورية والانتهازية والتهافتية بحيث "صيَّر تلميذه الخاص فرعونا لكن يعبد أخس الأشياء ويرى كل سبب نافع أنه ربه... متمردا لكن يتمسك بنهاية الذِّلّة للذته. ويقبِّل رجل الشيطان لمنفعة خسيسة. وجبارا لكن لعدم نقطة الاستناد عاجز في ذاته بغاية العجز. وإن غاية همة تلميذك: بطنه وفرجه أو منفعة قومه، لا لقومه بل لأجل منفعة نفسه أو تطمين رقة الجنسية أو تسكين حرصه وغروره، ولا يحب إلا نفسه ويَفْدي لها كل شيء".

أما الجهد القرآني، لا سيما جهد رسائل النور، فقد تسنى له بفضل الله أن يخرج النموذج الأعلى الذي يُسهم في إنقاذ أمته وإعادة العزة إليها: "وأما خالص تلميذ القرآن فـ"عبد" لكن لا يتنزل للعبودية لأعظم المخلوقات ولا لأعظم المنفعة ولو كانت جنة. ولين هين لكن لا يتذلل لغير فاطره إلا بإذنه.. وفقير لكن يستغني بما ادخر له مالكه الكريم.. وضعيف لكن يستند بقوة سيده الذي لا

نهاية لقدرته.. ولا يرضى تلميذه الحقيقي حتى بالجنة الأبدية مقصدا وغاية، فضلا عن هذه الدنيا الزائلة".

الخلاصة

إن عالم النورسي الفكري العميق غاية العمق يتضمن عددا من أفكار تتعلق بالإنسان والإنسانية، منها:

– للإنسان خاصِيتان، أولاهما الأنانية المحصورة في الحياة الدنيا، وثانيتهما العبودية الممتدة إلى الحياة الأبدية، أو بعبارة أخرى، جهة التخريب والعدم والشر والسلبية والانفعال، وجهة الإيجاد والوجود والخير والإيجابية والفعل؛

– وظيفة الإنسان الحاقة هي العبودية لله واجتناب الكبائر، والعبادة تَصْرف тасриф وجه الإنسان من الفناء إلى البقاء؛

– سجايا الإنسان وماهيته تظهر بالتوحيد؛

– "إن الإنسان يسمو بنور الإيمان إلى أعلى عِلّيِين فيكتسب بذلك قيمة تجعله لائقا بالجنة، بينما يتردى بظلمة الكفر إلى أسفل السافلين فيكون في وضع يؤهله لنار جهنم، ذلك لأن الإيمان يربط الإنسان بصانعه الجليل".

التخلق بالأخلاق الإلهية في رسائل النور

الغاية القصوى للإنسانية والوظيفة الأساسية للبشرية

أ.د عمّار جيدل
جامعة الجزائر

يتوقّف القارئ والمستمع في أوّل وهلة عند العنوان، فيضنّه محاولة لتحيين أو وين نصوص بديع الزمان سعيد النورسي مع متطلبّات المصطلحات المتداولة في البحث الحضاري الإسلامي والعام، وللقارئ غير البصير برسائل النور (مؤلفات النورسي) الحق في النتيجة التي خَلُص إليها، ذلك أنّ ظاهرة تأوين النصوص وتكييفها مع مقتضيات المرحلة سمعة عامة لما نسمع ونقرأ طغت على الساحة البحثية الراهنة، حتى عادت البحوث أشبه ما تكون ببرامج "ما يطلبه المستمعون".

أؤكّد في مستهل الورقة أنّ العنوان المختار ليس من وضع الباحث، وبالتالي ليس فيه محاولة لتأوين نصوص النورسي مع مقتضيات المرحلة، بل هو مقتبس من أدبيات النورسي نفسه، فهو القائل في رسائل النور: "إنّ الذين هم في مسار النبوة، حكموا حكماً ملؤه العبودية الخالصة لله وحده، وقضوا: أنّ الغاية

القصوى للإنسانية والوظيفة الأساسية للبشرية هي التخلق بالأخلاق الإلهية"، ينتقل بعدها إلى بيان تجليات تلك المعاني في الحياة المعيشة، فيذكر أنّ الغرض منها هو التحلي بالسجايا السامية والخصال الحميدة - التي يأمر بها الله سبحانه ـ وأن يَعْلَم الإنسان عجزَه فيلتجئ إلى قدرته تعالى، ويرى ضعفَه فيحتمي بقوته تعالى، ويشاهد فقره فيلوذ برحمته تعالى، وينظر إلى حاجته فيستمد من غناه تعالى، ويعرف قصوره فيستغفر ربه تعالى، ويلمس نقصه فيسبّح ويقدّس كماله تعالى".(١)

يستشف من الألفاظ المركزية في العنوان، أنّنا أمام اختيارات مضبوطة، تحدّد مصدر هذه الأخلاق من جهة، وأهمية التخلّق بها من جهة أخرى، كما يشير إلى أنّ لهذا المقصد الأعلى وظيفة اجتماعية تنبجس منها تصرّفات تتجلى في جميع شعاب الحياة، ولهذا فالتخلّق المطلوب، حركة في الحياة وليست مواتا أو تماوتا أو شللا، فهي تُرى حالا قبل البوح بها مقالا، يُرى الصدق والشفقة والمحبّة في شعاب الحياة، وبهذا يدفع التخلّق في رسائل النور إلى الحركة والتحريك، ويتعيّن من أجل الخلوص إلى عرض مجملات المسألة، استهلال العرض بمفاتيح العنوان، نركّز فيها على بيان المصطلحات الرئيسة في العنوان، لننتقل بعدها إلى ما وعدنا به.

مفاتيح العنوان:

يراد بمصطلح الأخلاق الإلهية في أدبيات النورسي، الأخلاق التي أمر بها الله تعالى، أي على وفق قول النورسي: "التحلي بالسجايا السامية والخصال الحميدة التي يأمر بها الله سبحانه"(٢)، وبلّغها أنبياؤه، وخاصة ما ورد في آخر تبليغ عن الله، فقد كان الرسول محمد ﷺ آخر الأنبياء والمرسلين، وبالتالي فآخر

(١) انظر الكلمات ص: ٦٤٢

(٢) انظر الكلمات ص: ٦٤٢

مبيّن وممثّل لتلك الأخلاق هو آخر الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ، وخاصة في ظل التحريف الذي أصاب كتب المتقدمين من الأنبياء عليهم السلام.

الغاية القصوى للإنسانية: يُمَثِّل تَمَثُّل الأخلاق الإلهية كما جاء به النبي ﷺ منتهى ما يطمح إلى تحقيقه في المجتمع الإنساني، وجعله برنامجا يستغرق مجموع ما يربط البشر بعضهم ببعض، وربط الهمم بتحقيق هذا المقصد يزيد من وتيرة التخلّق بتلك الأخلاق وينشّط الهمم للالتزام بها في شعاب الحياة، وهو ما سنعود إلى عرضه في تفاصيل البحث.

منزلة المسألة الأخلاقية في رسائل النور:

نستبين منزلة المسألة الأخلاقية في صرح الرسائل من خلال نسبة الحديث عن المسألة في الرسائل نفسها، فالمسألة الأخلاقية محور ومحرّك التغيير في كلّ مجالات الحياة، وهي أساس الفعالية الإيمانية في شعاب الحياة، وما يقع من المؤمن من قصور أو تقصير راجع في العمق إلى المسألة الأخلاقية، فالفاعلية الإيمانية تنضبط بعاملين *عامل المعرفة وعامل الالتزام* بخط الانتساب الإيماني في بعده الأخلاقي، بل هو متناسب معه وجودا وعدما زيادة ونقصا، فكلما زاد التخلّق زادت الفعالية في شعاب الحياة والعكس صحيح أيضا، ولهذا كانت "نسبة الأخلاق والعبادة وأمور الآخرة والفضيلة في الشريعة هي تسع وتسعون بالمائة بينما نسبة السياسة لا تتجاوز الواحدة بالمائة. فليفكر فيها أولياء أمورنا".[٣]، ولهذا كانت الهمم منذ القديم مصروفة - كما يقول النورسي - بنسبة تسع وتسعين بالمائة إلى تهذيب الأخلاق واستقامة السلوك وما شاكلها من

---

(٣) صيقل الإسلام ٤٤٦

المهام الجليلة من نحو الفضائل والمقاصد المشروعة، وهذا يؤسس لثقافة المحبّة والسعي إلى تنميتها، تأسيسا لتغيير الإنسان وفق مراد الله.(٤)

قد نأنف من تأخير المسألة السياسية وجعله جزء من التكليف وليس كلّ التكليف، فيقال أنّ السياسة تغطي كلّ شعاب الحياة، وهذه حقيقة لا يمكن إنكارها، والقضية في الأصل لا تطرح بهذه الصيغة، إذ لا يخالف فيها عاقل، ولكن المسألة تعرض بصيغة أخرى تتناغم مع عرض الأستاذ بديع الزمان النورسي، وصيغة السؤال المتناغم مع أطروحته هو الآتي:"هل يمكن أن يكون المسلم غير المتخلّق بأخلاق الإسلام متدينا في كلّ شعاب الحياة ولا سيما التي توافق هواه، وخاصة في الفعل السياسي"؟ لهذا كان مسعى التخلّق مفضيا إلى تديين السياسة، أي التأسيس لانضباطها بالإسلام في برامجها واختيار رجالها، أما تسييس الدين فهو - ولا شك - خطير جدا على الإسلام والمسلمين، لأنّه يؤسس لفعل سياسي منسوب للإسلام صادر عن غير متخلّق بأخلاق الإسلام، فماذا تكون النتيجة، تصرفات سياسية غير إيمانية منسوبة لخط الإيمان، لأنها بدرت من أشخاص ينسبون إلى خط الإيمان.

مسلك التخلّق الذي يؤسس له الأستاذ ليس من غرضه أن يكون بديلا حركيا أو مسلكا مزاحما لمسالك سابقة، بل هو بمثابة قيمة مضافة حقيقة لمجموع المسالك الموجودة، ذلك أنّ التخلّق إذا تحلّت به والتزمت به المسالك الموجودة زادها قيمة إلى قيمتها، ودفعاه إلى التفتيش عن رحاب الفعالية الحضارية المبنية على الفاعلية الإيمانية المؤسسة على خط الانتساب الإيماني، من هذا المنطلق كان التخلّق قيمة مضافة لكلّ المسالك المعبّرة عن آلام الأمة وآمالها وإن تنوعّت مرابطتهم، إذا تحقّق التخلّق في مجموع مناهج المرابطة،

(٤) انظر صيقل الإسلام ٥٣٤

فإنّها تيسّر الاقتصاد في الطاقات وتسمح بالاستثمار الأمثل للأوقات، وتجسّر العلاقة بين مكوّنات المشهد العام، لأنّ التخلّق بالأخلاق الإسلامية منهج عملي لا يتناغم مع الإقصاء، بل غرضه الرئيس نفي النفي، والتواصل بين مكوّنات الأمة، ومنع الانسداد، فتبعد عناصر التخويف والبلبلة والتشهير، من هنّا ركّز الأستاذ على بيان منزلة المسألة الأخلاقية في رسائل النور، لكي تكون محل ثقة الجميع وأصلا في التحلي بمجموعة من الإيجابيات ودفع مقابلها من السلبيات، منها على سبيل المثال لا الحصر:

١ - التخلّق أصل بعث الحركية الإيجابية في حياة المسلم، والتقصير في الغالب إلى مردُّه إلى نقص في التخلّق.

٢ - منبع الاهتمام بسؤال الفعالية، فالتخلّق "مصل" مهم في التطعيم ضد الشلل الاجتماعي المتأتي من السلبية المانع من التمكين لمرض الإهمال، المعروف عند بعض العثمانيين بمرض"أنا مالي"[(٥)]

ييسّر التوضيح المنهجي السابق، فسح الطريق بسلاسة ووفاق أمام مسلك التخلّق، إذ ليس من غرضه تصفيات الحسابات ولا أن يستعمل في تصفيات الحسابات بين متنافرين، وليس من غرضه الاستحواذ على السلطة، من هنّا يعمل مسلك رسائل النور على أن يكون محلّ ثقة الجميع، وبهذا أؤكّد أنّه يمثّل قيمة أساسية في تفعيل الحياة الاجتماعية والتربوية للفرد والأسرة والمجتمع والبلد والأمة والإنسانية، فهو قيمة أساسية للجميع (بصرف النظر عن نوع المرابطة) في حركتها نحو التقدّم والنمو، وليس من مقصده الدخول في لُعَب الدنيا والتلاعب بها، غرضه أن يتعرّف الناس موالفين ومخالفين أن مسلك التخلّق عُمْدَة التأسيس لمجتمع إنساني، وهي مصدر مبعث إنسانية التصرفات في جميع تجلياتها

(٥) بمعنى "أنا ما دخلي في الموضوع"، وهو قول الأستاذ زاهد الكوثري

الشخصية، والاجتماعية، والمجتمعية والإنسانية، ومعلوم أن مبعث الإقناع بأهمية هذا المسلك بيان مصدره.

مصدر المسؤولية الأخلاقية:

من أساليب التشويق أن يطلب إلى الإنسان ولاسيما العبد لله، أن يقال له إنّ الغاية القصوى للإنسانية والوظيفة الأساسية للبشرية في رسائل النور التخلّق بالأخلاق الإلهية، وعندما يُحَدَّثُ عن الغاية العظمى (التخلّق) الوظيفة الأساسية للبشرية، يسترعي انتباهه التساؤل عن مصدر هذه الأخلاق، ومن ثمّ يبدأ رحلة اكتشاف أثر القطع واليقين بأنّها من مصدر إلهي، فلتلك المعرفة (المصدر الإلهي للأخلاق) حضور كبير في نفسية المتخلّق، وحيويته، ومن ثمّ حيوية وحركية الراغب في تمثّل تلك الأخلاق.

الرغبة في التخلّق بالأخلاق الإلهية، يستبطن الإقرار بأنّ مصدرها مستقل في أصل وضعه عن البشر، وهو ما يدفع الراغبين بالتخلّق به إلى بذل الوسع من أجل نيلها وتمثّلها، ومما يؤكّد استقلال وضعها أنّ نيلها ليس متاحا النيل في منتهى الكمال، لهذا تسعى النفوس السامقة إلى نيلها بجهد يستغرق كل وقت رحلة الحياة من الميلاد إلى الوفاة، ذلك أنّ الأخلاق الإلهية من حيث أنموذجيتها (النهاية العظمى التي يسعى المتخلّق إليها باستمرار مهما بذل من وسع) تشحذ همم الذين تعلّقت قلوبهم وعقولهم بها، إذ كلّما سار المتخلّق قُدُما في طريق الأخلاق، ازداد إحساسا وإقرارا بالتقصير، وكلّما أحسّ وأقرّ بالتقصير زاد بذله وعطاؤه، وكلّما زاد فيهما ازداد خدمته لنفسه وأمته والمجتمع الإنساني.

وحُمِيَت تلك الأخلاق باستقلالها من جهة الوضع، من إمكان تلاعب البشر بها؛ فوضوح المصدر في التخلّق وتنزّهه من الاستغلال في أصل الوضع، يدفع

إمكان التفكير في الاستغلال من جهة، ويدفع إلى التفكير في تمثّلها لصيانتها من التوظيف في تصفية الحسابات بين المختلفين على حطام الدنيا من جهة أخرى، فهي من حيث مصدرها تُسْعِف المتلبّس بها المتفاعل في رحابها في الابتعاد عن مواطن شبهة صيد الدنيا بعنوان الآخرة، أو تحقيق الرذيلة (بكلّ أشكالها ومجالاتها) بعنوان الفضيلة بكلّ أشكالها ومجالاتها المعروفة[٦].

عندما يقتنع الإنسان بأنّ مصدر التخلّق إلهي، ويلتزم بمقتضياتها هذه الإيمانية؛ فإنّه سيجني آثارها في تصرفاته، ويكتشفها المجتمع في شعاب الحياة، في الموقف التربوي والاجتماعي والاقتصادي والحضاري... وغيرها من مجالات الحركة البشرية.

وترسخ تلك المعاني وترى آثارها فيما سبقت الإشارة إليه إذا أيقن الإنسان بأنّ في القرآن الكريم جميع أقسام فضائل الكلام، وجميع أصناف الأساليب العالية *وجميع أفراد محاسن الأخلاق*، وعندما تقرأ النص المبيّن لهذا المعاني سواء في نصوص التنزيل أو في نصوص النورسي، تنتفع بمعاني إضافية تخدم ذات الهدف وتعمّق حضوره في قلب وعقل المتلقي، يشهد لهذا المعني قوله: "جمع القرآن جميع أقسام فضائل الكلام، وجميع أصناف الأساليب العالية *وجميع أفراد محاسن الأخلاق*، وجميع خلاصات العلوم الكونية، وجميع فهارس المعارف الإلهية، وجميع الدساتير النافعة للحياة البشرية الشخصية والاجتماعية، وجميع القوانين النورانية السامية لحكمة الكون.. وعلى الرغم من جمعه هذا لا يظهر عليه أي اثر كان من آثار الخلط وعدم الاستقامة في التركيب أو المعنى"[٧]

---

(٦) الرذيلة أو الفضيلة في جميع مجالات الحياة، في السياسة والتربوية والإعلامية والحضارية والاجتماعية والاقتصادية و... وبمختلف الأشكال.

(٧) الكلمات ٤٦٦

وأنت بصدد اكتشاف "*جميع أفراد محاسن الأخلاق*" تكتشف معارف أخرى يحتاج إليها في التأكيد على تلك المعاني، فتخدم الفكرة بجميع أقسام فضائل الكلام، وجميع الأساليب العالية، ويزيدها توافقها مع جميع خلاصات العلوم الكونية ترسّخا وحضورا في القلوب والعقول.

يؤكّد تناغم جميع فهارس المعارف الإلهية، وجميع الدساتير النافعة للحياة البشرية الشخصية والاجتماعية، وجميع القوانين النورانية السامية لحكمة الكون.. أنّ الأخلاق الإسلامية مبناها الحقيقة والصدق والصحة، فهي ليست من قبيل الأوهام التي تعرض رأيا أو قيمة أخلاقية لا تتناغم مع مكوّنات الكون، فتبتعد عن أن تكون سببا في انشطار داخل الإنسان نفسه ومعارك داخلية لا يعلم مداها إلاّ الله، فمنعا للمعارك الداخلية (داخل الإنسان) وتأسيسا للسلم الداخلي القلبي والعقلي والاجتماعي ثم الكوني، يخاطب القرآن الكريم - الذي منه اقتبس خطاب رسائل النور - الإنسان بوصفه إنسانا فليس خطابه لشخص مخصوص بل هو خطاب لمطلق الإنسان، حيثما وُجِد ومن أي لون عرقي أو جغرافي كان.

وخطاب هذا شأنه يؤسس بنيانه على الحقيقة لا على الختل والأوهام والمغالطات والخزعبلات، فلا تقنع بغير الحجة الواضحة البيّنة، فمسلك القرآن الكريم يرفض الهيمنة على أفكار العموم وإرشادها بالأوهام والحيل بعثا للترهيب والترغيب والخوف والتكليف من حجة أو دليل واضح بيّن، فهذه الأساليب وإن نجحت فإنّ تأثيرها لن يكون إلاّ جزئيا سطحياً مؤقتا، لأنّ قائم على سدّ طريق المحاكمة العقلية، ولو استطعنا أن نمنع المحاكمة العقلية في الوقت فليس بمقدورنا منعها في كلّ وقت.

رسائل النور المقتبس نورها من أنوار القرآن الكريم لتأسيسها على الحجة والبرهان ينفذ نورها في أعماق القلوب بما تضمنته من إرشاد، يُهَيِّج دقائق الحسيات، وسعاد على كشف أكمام الاستعدادات، يوقظ الأخلاق، ويظهر الخصال المستورة، ويجعل جوهر إنسانية الإنسان فواراً، تبرز له قيمة ناطقيته.

تبعث كلّ تلك المعاني في قلب وعقل بأنوار مقتبسة من شعاع الحقيقة ومن الخوارق للعادة لا من الأوهام والاستبداد المعرفي أو غيره، فقد كانت تلك الحقائق سببا قويا في تغيّر كلّي لنفسية المتلقين للوحي، فقد كان أحدهم لقساوة قلبه يقبر بنته حيةً ولا يتألم ولا يتأثر، وتراه بعد يوم من إسلامه يترحّم على نحو النمل، ويتألم بألم حيوان. فبما تغيّرت هذه النفوس؟ هل غيّرتها الأوهام والإرهاب؟، لا يمكن أن تغيّرها غير الحقائق الناصعة القوية المهيمنة على القلب والعقل.(٨).

الأخلاق العالية في رسائل النور تتصل بأرض الحقيقة بالجدية، وإدامة حياتها وانتظام مجموعها إنما هي بالصدق. ولو ارتفع الصدق من بينها صارت كهشيم تذروه الرياح.(٩) والنتائج المحصّل عليها، ليست خاصة بالمتقدمين؛ فكلّ من دخل رحاب الإسلام بمنطق العبودية ظهرت عليها تلك النتائج أو ما يقرب منها، وليس الغرض جعله قاصرا على الأفراد، بل له رسالة اجتماعية ظاهرة، لهذا لا يقبل القرآن الكريم النازل رحمة للعالمين إلاّ طرازاً من المدنية التي تمنح السعادة للجميع أو الأكثرية، بينما المدنية الحاضرة قد أطلقت الأهواء والنوازع من عقالها، فالهوى حر طليق طلاقة البهائم، بل أصبح يستبد، والشهوة تتحكم، حتى جعلتا الحاجات غير الضرورية في حكم الضرورية. وهكذا مُحيت

---

(٨) انظر إشارات الإعجاز ١٦٩

(٩) انظر إشارات الإعجاز ١٦٦

راحة البشرية؛ إذ كان الإنسان في البداوة محتاجاً إلى أشياء أربعة، بينما، أفقرته المدنية الحاضرة الآن وجعلته في حاجة إلى مائة حاجة وحاجة؛ حتى لم يعد السعي الحلال كافياً لسد النفقات، فدفعت المدنية البشرية إلى ممارسة الخداع والانغماس في الحرام، ومن هنا فَسُدَت أُسُس الأخلاق، إذ أحاطت المجتمع والبشرية بهالة من الهيبة ووضعت في يدها ثروة الناس فأصبح الفرد فقيراً وفاقداً للأخلاق.

وتأكيدا لهذه المعاني الواقعية والعملية للأخلاق الإلهية، وإمعانا في بعث عملية المسعى، بعث إلينا الأنموذج الأكمل في تمثّل تلك الأخلاق، فقد جعل الرسول الأكرم ﷺ، الأنموذج الأكمل "ولكم في رسول الله أسوة حسنة"، وقال تعالى:"قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم"

الرسول ﷺ الأنموذج الأكمل:

تخيّل أن المسلم - بصرف النظر عن المسلك الذي ارتضاها مرابطا دون الأمة - اختار أن التخلّق مهيمنا على مسلكه، فلا شكّ أنه سيختار الرسول ﷺ، قدوته في التخلّق، وبهذا سيكون أكثر فعالية وأكثر إنسانية في تصرفاته مع المخالفين فضلا عن الموالفين، ذلك أنّ الهمم إذا رُبِطَتْ بالتخلّق بالأخلاق الإلهية، اختارت ضرورة العبودية أساسا للتخلّق، ومعبرها الأساسي الإقرار بالنبوة، فالذي اختار مسار النبوة؛ فقد حكم حكماً ملؤه العبودية الخالصة لله وحده، وقضى أنّ الغاية القصوى للإنسانية والوظيفة الأساسية للبشرية هي التخلق بالأخلاق الإلهية، وتتلخّص غايتها القصوى في "التحلي بالسجايا السامية والخصال الحميدة - التي يأمر بها الله سبحانه - وان يعلم الإنسانُ عجزَه فيلتجئ إلى قدرته تعالى، ويرى ضعفَه فيحتمي بقوته تعالى، ويشاهد فقره فيلوذ برحمته

تعالى، وينظر إلى حاجته فيستمد من غناه تعالى، ويعرف قصوره فيستغفر ربه تعالى، ويلمس نقصه فيسبّح ويقدّس كماله تعالى."[١٠]

الأنموذج التطبيقي للأخلاق الرفيعة الرسول الأكرم ﷺ، أنموذج معالي الأمور ومحاسن الأخلاق، المتسنّم قمة الكمال والداعي إلى الخير والصدق والحق، المثال الأكمل والأنموذج الأتمّ، وهو بهذه الصفات العُلى شدّ أنظار الخليقة منذ عهد الصحابة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ويُسِّر للصحابة الكرام رضي الله عنهم بما وُهبوا من فِطَر سليمة ومشاعر سامية الانضواء تحت لواء النبي ﷺ، وبمقتضى سجيتهم الطاهرة وجبلتهم النقية، لم يُر منهم أي ميل كان إلى أباطيل مسيلمة الكذاب الذي هو مثال الكذب والشر والباطل والخرافات، فكان الصحابة - رضي الله عنهم - بحق أحسن أنموذج معبّر عن السمع والطاعة والالتزام الأمثل وفق المعايير البشرية بأخلاق الإسلام.[١١]

وأخلاق النبي ﷺ التي قصّها القرآن الكريم "وإنّك لعلى خلق عظيم" وعضّدتها الأحاديث الصحيحة الصريحة، وهي فوق مقام الشبهة، يؤيّد الإقرار بها المخالف النزيه قبل الموالف، فقد "اتفق الأعداء والأولياء بما لا ريب فيه أن ما يتحلى به ﷺ من الأخلاق الفاضلة هو في أسمى الدرجات، وان ما يتصف به من سجايا حميدة في دعوته هو في أعلى المراتب، تشهد بذلك معاملاته وسلوكه مع الناس. وأن شريعته الغراء تضم أكمل الخصال الحسنة، تشهد بذلك محاسن الأخلاق في دينه القويم"[١٢].

---

(١٠) الكلمات ٦٤٢، أنظر أيضا ٦٨٩
(١١) انظر الكلمات ٥٧٤ و إشارات الإعجاز ١٦٦
(١٢) الكلمات ٧٤١، ٢٣٦، ٢٥٢

ويقرر هذه الحقيقة قول النورسي في أكثر من موضع من رسائله أنّ الرسول ﷺ، يملك في ذاته وفي مهمته وفي دينه أسمى الأخلاق وأجملها، وأكمل السجايا وأثمنها، وارفع الخصال وأفضلها، من هنا كان بلا ريب مثال كمال الموجودات، وممثلٌ لفضائل الأخلاق ومثالها الواقعي العملي المجسّم، والقدوة الحسنة لها؛ ولهذا فالكمالات التي تشعُّ من ذاته ومن مهمته ومن دينه لهي ركيزة قوية عظيمة لصدقه بما لا يمكن أن يزحزحها شيء[١٣].

لهذا كان بحقّ الداعي إلى الوحدانية والسعادة الأبدية، فهو معدن الكمالات ومعلم الأخلاق الفاضلة، لا ينطق عن نفسه وحسب هواه - حاشاه - وإنّما ينطق بالوحي الإلهي؛ فهو يستلم الوحي من ربه الجليل ويبلّغ به الآخرين، وكلّ ذلك مسجى بالحقيقة لا بالأوهام، فقد ثبت صدقه وحقيقة دعوته بألوف من دلائل النبوة[١٤]. وهو زيادة إلى ما سلف اجتماع أعالي جميع الأخلاق الحميدة في ذاته بالاتفاق.. وكذا جمعُ شخصيته المعنوية في وظيفته أفاضل جميع السجايا الغالية والخصائل النزيهة.. وكذا قوة إيمانه بشهادة قوة زهده وقوة تقواه وقوة عبوديته.. وكذا كمال وثوقه بشهادة سيره، وكمال جدّيته وكمال متانته، وكذا قوة أمنيته في حركاته بشهادة قوة اطمئنانه.. تصدِّقه كالشمس الساطعة في دعوى تمسّكه بالحق وسلوكه على الحقيقة[١٥]، لهذا انتهى النورسي إلى أنّ الله سبحانه وتعالى لحبّه أخلاق مخلوقاته يحب محمداً ﷺ، إذ هو في ذروة الأخلاق الحميدة، كما اتفق عليها الأولياء والأعداء"[١٦]، ولهذا قال الأستاذ: مسكلنا التخلّق بأخلاق النبي محمد ﷺ وإحياء سنته.[١٧]

---

(١٣) انظر المكتوبات ٢٥٢
(١٤) المكتوبات ٢٥٢
(١٥) المكتوبات ٢٥٨
(١٦) المكتوبات ٣٩٣
(١٧) صيقل الإسلام ٥٣٢

الأساس العقدي للأخلاق:

بيّن مما سلف بيانه أن للأخلاق في الإسلام أساس عقدي، عمدته الرئيسة الإيمان بالله، ثم بالنبوة، بوصفها الطريق الأمثل للمعرفة عن الله من جهة، وجعل النبي الكريم ذروة الأخلاق الحميدة من جهة أخرى، ولم يبق الأمر عند هذا الحد، بل عضّده بعُمَد أخرى، تدفع إلى التمكين للمقصدين الرئيسين (التوحيد والنبوة)، فجعل الإيمان بالآخرة مقصدا ثالثا يخدم فكرة التمكين للتخلّق بالأخلاق الإلهية، لهذا كان للإيمان باليوم الآخر دور مشهود قابل للمعاينة بل ومعاين بالفعل في إيجاد دافع التخلّق، ودوره في الفعالية في التخلُّق، ذلك أن الإيمان باليوم الآخر ما أن يحل في بيت حتى يُنَوِّر أرجاءه مباشرة ويستضئ، لأنّ علاقة القربى والرأفة والمحبة التي تربط أفراد الأسرة لا تقاس عندئذ ضمن زمن قصير جدا، بل تقاس على وفق علاقات تمتد إلى خلودهم وبقائهم في دار الآخرة والسعادة الأبدية، فيقوم - عندئذ - كلُ فرد باحترام خالص تجاه الآخرين، ويوليهم محبة صافية، ويظهر رأفة صادقة، ويبدي صداقة وفية، صارفاً النظر عن التقصيرات؛ فتتعالى الأخلاق وتسمو، وتبدأ السعادة الإنسانية الحقّة بالتألق في البيت. [١٨]

والتربية على هذه المعاني في البيت له أثر على المدينة ثم الأسرة الإنسانية، فالتخلّق بهذه الأخلاق في الوسط الضيّق يورّث دُربة تسعف المتحلّي بها في الانتفاع بها في المجالات الأوسع كالمدينة والوطن والأسرة الإنسانية، يؤكّد هذه المعاني قول النورسي: "وهكذا فان كل "مدينة" هي بحد ذاتها بيت واسع لسكنتها؛ فإن لم يكن "الإيمان بالآخرة" مسيطراً على أفراد هذه العائلة الكبيرة فسيستولى عليهم الحقد والمنافع الشخصية والاحتيال والأنانية والتكلف والرياء

(١٨) انظر الشعاعات ٢٨٣

والرشوة والخداع، بدلاً من أسس الأخلاق الحميدة التي هي الإخلاص والمروءة والفضيلة والمحبة والتضحية ورضى الله والثواب الأخروي، وغياب تلك القيم من الحياة يفتح المجال واسعا أمام معاني الإرهاب والفوضى والوحشية، فتصبح مسيطرة تحت اسم النظام والأمن والإنسانية التي يظهرونها، وحينئذ تتسمم حياة تلك المدينة، فيتصف الأطفال بالوقاحة والإهمال، والشباب بالسُكر والعربدة، والأقوياء بالظلم والتجاوز، والشيوخ بالبكاء والأنين."[١٩]

ثم يسترسل مؤكدا هذه المعاني، بقوله: "وقياساً على هذا فإنّ "البلاد" بأكملها ما هي إلاّ بيت واسع جداً، والوطن بيت عائلة الأمة؛ فإذا ما حكم "الإيمان بالآخرة" هذه البيوت وسيطر، فإن الفضائل تتكشف وتتبسط وتتوضَّح فيها فتظهر الاحترام المتبادل والرحمة الجادة، والمحبة الخالصة بلا عوض، والمعاونة مع الخدمة الحقة بلا احتيال، والمعاشرة والإحسان بلا رياء، والفضيلة والتوقير بلا استكبار، وتشيع الفضائل الأخرى جميعاً؛ حيث يهتف الإيمان بالآخرة بأولئك الأطفال قائلا لهم: "دعوا الوقاحة والإهمال فقدامكم جنة النعيم فلا تشغلوا أنفسكم عنها بالألاعيب".

فقد كان لعقيدة الآخرة بإرشاد القرآن الكريم[٢٠] دور فعّال في التخلّق بأخلاق النبي ﷺ وهذا يؤكّد الأساس العقدي للتخلّق، وهو مبعث حركية تستغرق كل مجالات الحياة.

التخلّق حركة دائبة تستغرق كل الحياة:

الأخلاق بالتخلّق، كما أنّ الحلم بالتحلُّم، والعلم بالتعلُّم، و، يتعيّن للتخلّق المداومة على الاتّصاف بما يخوّل لك البقاء ثابتا على مسلك التخلّق، لهذا فهو

(١٩) الشعاعات ٢٨٣
(٢٠) الشعاعات ٢٨٣

مسعى مستمر دائم، يستغرق كلّ الأوقات، وتظهر نتائجه في جميع المجالات وكلّ شعاب الحياة، وما التدريبات والتعليمات المذكورة بعنوان التكاليف الشرعية إلا أوامر ونواهي ممكّنة لتلك المعاني في نفس المتلقي وقلبه وعقله، وعلى رأسها العبادة وفي مقدمتها الصلاة..تلك هي الأساليب التي تقيم عُمَدَ الأخلاق في العقل والقلب، وتسعفه على اجتثاث ركائز الرذائل من نفسه، فتدفعه إلى مجاهدة نفسه وهواه، واجتناب الخطايا ودنايا الأخلاق، ومقاومة شياطين الجن والأنس، إنقاذاً لقلبه وروحه معاً من الهلاك الأبدي والخسران المبين.[٢١]

دواعي العمل على أخلقة حياة الأمة:

١ - التخلُّق مظهر الالتزام بالإسلام: مظهر الالتزام بالإسلام في عقائده وشرائعه:

أوّل مظاهر خلل التديّن نقص في التخلّق، وكلّ من فاقك في الأخلاق الإسلامية فاقك في الدين، فزيادة التخلّق ونقصها تتناسب مع زيادة الدين ونقصه والعكس صحيح أيضا، لهذا كان الالتزام بالأخلاق الإسلامية عنوان الالتزام بالإسلام، لهذا كان المطلب الرئيس من التكاليف الشرعية "التحلي بالسجايا السامية والخصال الحميدة - التي يأمر بها الله سبحانه -"، وهو الغاية القصوى للإنسانية والوظيفة الأساسية للبشرية.[٢٢]

٢ - شمولية البعد الوظيفي للأخلاق:

الأخلاق الإسلامية وإن كانت مسألة فردية شخصية؛ فإنّها في العمق تنبيه إلى الوظيفة الاجتماعية، تؤكّد هذا المعنى نصوص الأستاذ بديع الزمان

(٢١) الكلمات ١٩
(٢٢) انظر الكلمات ص: ٦٤٢

النورسي، إذ جعل، كما هو بيّن من عنوان الورقة، التخلق بالأخلاق الإلهية في رسائل النور، الغاية القصوى للإنسانية والوظيفة الأساسية للبشرية، ومنتهى الغايات أن يصون التخلّق في منتهاه المجتمع الإنساني في وجوده ويعمل على صيانة ذلك الوجود في الوقت نفسه، فعمل على دفع كلّ ما شأنه أن يؤثّر سلبا في المجتمع البشري، وفرض تبني هذا المقصد التنبيه إلى أنّ أس أساس جميع الاضطرابات والثورات في المجتمع الإنساني إنّما هو كلمة واحدة، كما أنّ منبع جميع الأخلاق الرذيلة كلمة واحدة، فالأولى تصرّفاتهم المصرّحة بتبني قاعدة:"*إن شبعتُ، فلا عليّ أن يموت غيري من الجوع*"، وقاعدة: "*اكتسبْ أنت، لآكل أنا، واتعبْ أنت لأستريح أنا*"، وهي أساليب تؤسس للصراع والاضطرابات الكونية، لأنّه لا يمكن العيش بسلام ووئام في مجتمع إلاّ بالمحافظة على التوازن القائم بين الخواص والعوام، أي بين الأغنياء والفقراء، وأساس هذا التوازن هو رحمة الخواص وشفقتهم على العوام، وإطاعة العوام واحترامهم للخواص.

فقد ساقت القاعدة الأولى:"*إن شبعتُ، فلا عليّ أن يموت غيري من الجوع*" إلى الظلم والفساد، ودفعت القاعدة الثانية: " *اكتسبْ أنت، لآكل أنا، واتعبْ أنت لأستريح أنا*" العوام إلى الحقد والحسد والصراع. فسُلبت البشرية الراحة والأمان لعصور خلت كما هو في هذا العصر، حيث ظهرت حوادث أوربا الجسام بالصراع القائم بين العاملين وأصحاب رأس المال كما لا يخفى على أحد، فالمدنية بكل جمعياتها الخيرية ومؤسساتها الأخلاقية وبكل وسائل نظامها وانضباطها الصارم عجزت عن أن تصلح بين تينك الطبقتين من البشر كما عجزت عن أن تُضَمِّد جرحي الحياة البشرية الغائرَين.

و قد اقتلع القرآن الكريم قاعدة "*إن شبعتُ، فلا عليّ أن يموت غيري من*

الجوع" من جذورها، ويداويها بوجوب الزكاة. ويقلع قاعدة " *اكتسبْ أنت، لآكل أنا، واتعبْ أنت لأستريح أنا*" من أساسها ويداويها بحرمة الربا.[٢٣]

و تقديم دواء استئصال القاعدتين السابقتي الذكر من الواقع الاجتماعي تأسيس للتواصل الإنساني بين أفراد الأسرة الإنسانية الواحدة، إذ تُعَدّ القاعدتان مصدرين إضافيين لبقاء ثقافة الحقد والظلم نافذة لها سوق رائجة في المجتمع، كما أنّ التأسيس لبديل القاعدتين مؤسس بدوره لثقافة التواصل والحب والتعاون والتآزر، فتلاحظ أن للتصرفات الاجتماعية صلة جلية بالتخلّق، فكلما تخلّق الإنسان بالأخلاق الإلهية كان أكثر خدمة لمجتمعه من جهة والمجتمع الإنساني من جهة أخرى.

٣ - الفساد الأخلاقي في العصر الحديث:

يؤكد الواقع المعاصر المعيش الحاجة الملحّة لدرس الأخلاق، وبعث البعد الأخلاقي في حياتنا الاجتماعية والفكرية وقبلهما في الحياة التربوية والتأسيس لرؤية حضارية تنضبط بالقيم الأخلاقية؛ففي ظلِّ واقع بدأت فيه الأمور تتغيّر، فتقلّصت المسافة بين الكذب والصدق رويداً رويداً ، حتى أصبحا مترادفين متكاتفين في العصر الحاضر، فصار الصدق والكذب يعرضان معاً في معرض واحد، ويصدران معاً من مصدر واحد، مما تسبّب في فساد الأخلاق الاجتماعية واختلال موازينها. وزادت الدعايات السياسية إخفاء قبح الكذب المرعب وستر جمال الصدق الباهر.[٢٤] في مثل هذا الجو يصبح التخلُّق أكثر من ضروري، بل تفوق الحاجة إليه حاجة البشر إلى الهواء، ففساد الأخلاق تبرر بشكل قابل للمعاينة الدعوة إلى أخلقة الحياة البشرية بأخلاق النبوة التي تستأصل الرذائل وتمكّن للفضائل.

---

(٢٣) انظر الكلمات ٤٧٣٤٧٤، انظر المعاني نفسها في إشارات الإعجاز

(٢٤) انظر الكلمات ٥٧٥

٤ - بعث التفكّر الإيماني:

يؤكّد الأستاذ بديع الزمان أن من المقاصد الرئيسة لرسائل النور، تطعيم الشباب ضد الأمراض الاجتماعية من السفاهة والسقطات في مستواها الاجتماعي، وذلك بصد التيارات المخرّبة للعقول، فيمنع التشويش الإيديولوجي بالأفكار الفاسدة من خلال التأسيس للمزاوجة بين العلوم النقلية والعلوم العصرية، وفي ذلك أفضل أساليب حماية الجيل من فتن الإيديولوجية وما ينجم عنها من أخلاق مناقضة لأخلاق الأمة، يقرر هذه الحقيقة قول النورسي: "إنّ الذين يقرءون رسائل النور، ولاسيما من الشباب الواعي يكتسبون إيمانا قوياً؛ فيصبح متديناً تديناً لا يَهْتَز ولا يتوانى عن أية تضحية، ويكون محباً لوطنه، وأمته ومجتمعه، وعندما يوجد إيمان صلد في أي موضع كان فلا يكون هناك مجال *للسفاهة وللسقوط الأخلاقي* الذي يكون نتيجة طبيعية لبعض الايدولوجيات الضارة، وكلما زاد عدد المتسلحين بهذا الإيمان القوي ضاق المجال أمام توسع الأفكار الهدامة.[٢٥]

وهو إضافة إلى قيامه بالوظيفة الدفاعية من خلال منع تسرّب الثقافة المؤسسة للسخافة، يؤسس البديل الفكري والتربوي، وقد كانت مرافعاته في مختلف جلسات المحاكمات الكثيرة والمتعبة مؤكّدة لهذه المعاني، فيقول في أحدها مثلا:" وأنتم اليوم تملكون في أيديكم فرصة اكتساب محبة أولئك الملايين من أهل الحقيقة ودعاءهم وشفاعتهم، وإنّ الحقيقة السامية المسماة بـ "رسائل النور" أمامكم؛ فهل المراتب والمقامات الدنيوية الفانية والسفلية هي غايتها؟ أم أنّ غايتها هي نيل رضى الله تعالى الذي هو السعادة العظمى والفرحة الكبرى والهناء التي ما بعدها هناء؟ *أو تحفز كلماتها الإنسان إلى الأخلاق الرديئة والهابطة أم تجهزهم بالإيمان وتجملهم بالفضيلة وبالأخلاق السامية؟*

---

(٢٥) الشعاعات ٥٨٩

ينتقل بعدها إلى بيان عناصر الإجابة، فيقول: " أنتم تجدون رسائل النور أمامكم وهى منبثقة من الإعجاز المعنوي للقرآن المبين الذي هو نور إلهي؛ فما دام اكتساب الإيمان، والانتقال بهذا الإيمان في الدنيا إلى سعادة الدار الآخرة أهم غاية للإنسان، ومادامت رسائل النور تقدم - بفيض من القرآن - الحقائق الإيمانية وتقرب مئات الآلاف من قرائها ومستنسخيها إلى هذا الهدف، فلا مناص أمام عدالتكم السامية وحبكم للحقيقة إلاّ فهم الوجه القرآني، والوجه الحقيقي لرسائل النور وتقدير قيمتها الحقيقية، ومعرفة أن طلاب النور لا يسعون إلا لنيل رضى الله تعالى وانه لا هدف لهم سواه."[٢٦]

ولم يكن موقفه من الثقافة والفكر الوافد سلبيا لأنّه أجنبي عن ثقافة الأمة، بل اتّخذ هنا موقفا متوازنا، حمده فيما له من محامد، وذمّه فيما يراه معارضا لأصالة الأمة وقيمها وأخلاقها، فـ "الفلسفة التي تهاجمها رسائل النور وتصفعها بصفعاتها القوية، هي الفلسفة المضرة وحدها، وليست الفلسفة على إطلاقها، ذلك لأن قسم الحكمة من الفلسفة التي تخدم الحياة الاجتماعية البشرية، وتعين الأخلاق والمثل الإنسانية، وتمهّد السبل للرقي الصناعي، هي في وفاق ومصالحة مع القرآن الكريم، بل هي خادمة لحكمة القرآن، ولا تعارضها، ولا يسعها ذلك؛ لذا لا تتصدى رسائل النور لهذا القسم من الفلسفة".[٢٧]

٥- الدُرْبَة على الترقي في سلّم التربية الروحية في بعديها الفردي والاجتماعي:

الدُّربة على الترقي في سلم المقامات ومراتب السالكين، تيسّر للمسلم التحقق بمسالك الربانيين، ولهذا يذكر الأستاذ أن الأخلاق تُنَمى بالمجاهدة، يقرر هذه الحقيقة في قوله: "نموّ الأخلاق إنّما هو بالمجاهدة، وتكمل الأشياء

(٢٦) الشعاعات ٦٠٦

(٢٧) الملاحق ٢٨٦

إنّما هو بمقابلة الأضداد ومزاحمتها، ألا ترى أنّ حكومة إذا جاهدت ينمو فيها الجسارة وإذا تركت انطفأت"[٢٨]

لقد يسّر الالتزام بقيم القرآن الكريم، ولادة جيل حقيق بأن يكون من رواد خدام القرآن الكريم، يقاومون التخريبات المريعة[٢٩] بطرق ووسائل بسيطة، مفعولها أقرب إلى الأعمال الخارقة للعادة، إنّهم برسائل النور قوة تعمير وبناء روحي وأخلاقي من طراز فريد، وأعمال المسلمين سلفا وخلفا شاهدة على أثر الالتزام بتلك القيم على حياتهم المعيشة، من غير إفراط أو تفريط، لأن التهويل لا يختلف مفعوله عن التهوين، والموازنة بينهما يحافظ على المواهب ويصقلها، ويدفع عنها الإفساد والعبثية، لأنها مناقضة للحكمة الإلهية المهيمنة برعاية المصالح والحكم حتى على أصغر شيء في العالم.[٣٠]

تعديل الأخلاق ليس من قبيل حديث الأحلام أو الخيال، بل يحتاج إلى مكمّل ومرشد ومنبّه، "فملكة تعديل الأخلاق الموهومة لا تكفي للمحافظة على القوى الثلاثة في الحكمة والعفة والشجاعة، لذا فالإنسان بالضرورة محتاج ، إلى نبي يمسك بميزان العدالة الإلهية النافذة والمؤثرة في الوجدان والطبائع."[٣١]، ذلك أنّ الأخلاق العالية إنّما تتصل بأرض الحقيقة بـ "الجدية" وأنّ إدامة حياتها وانتظام مجموعها إنّما هي بـ "الصدق"، ومتى ما انقطعت عُرى الصدق والجدية منها صارت كهشيم تذروه الرياح... إلى أن يقول: إنّ حياة هذه الأخلاق الرفيعة وروحها هي: الصدق وإصابة الحق، فهما يضيئان كالشعلة المنورة ويعلنان

---

(٢٨) إشارات الإعجاز ٢٠٧
(٢٩) انظر الملاحق ١٧٠
(٣٠) انظر صيقل الإسلام ١٣٩
(٣١) صيقل الإسلام ١٣٩

عنها[٣٢]، ولهما أهمية عظيمة في بعث المراقبة المنتجة - بتوفيق الله - لعلّو الهمة الأخلاقية، وذلك لارتباطها بتحقيق مقصد عظيم، يظهر هذا المعنى في قول الأستاذ لتلاميذه: "على كل واحد منكم أن يكون مرآة عاكسة للإسلام وحامي ذماره، ومثالاً مُشَخَّصاً للأمة الإسلامية، إذ الهِمَّة تَتَعالى بِعُلُو المقصد، والأخلاق تتسامى وتتكامل بغليان الحمية الإسلامية".[٣٣]

وبهذه الدُرْبَة تنوّر الحرية بالأخلاق الإسلامية، وتفسّر تفسيرا يمثّل قيمة مضافة في تحرير الأمة من براثن التقليد للأفكار الغريبة عن المجتمع، يشهد لهذا قوله، موجّها خطابه للأمة بجميع مكوّناتها: "يا أبناء الوطن! لا تفسروا الحرية تفسيراً سيئاً كي لا تفلت من أيديكم، ولا تخنقونا بسقي الاستعباد السابق الفاسد في إناء آخر ذلك لأنّ الحرية إنّما تزدهر بمراعاة الأحكام الشرعية وآدابها والتخلق بالأخلاق الفاضلة وبناء على ما سبق ما ينبغي أن ننخدع، بل نجعل القاعدة الآتية دستور عمل لنا وهي: "خذ ما صفا دع ما كدرّ وفي ضوئها سنأخذ من الأجانب - مشكورين - كل ما يعين الرقي المدني من علوم وصناعات، أما العادات والأخلاق السيئة، فهي ذنوب المدنية ومساوئها التي لا يتبين قبحها كثيراً لكونها محاطة بمحاسن المدنية الكثيرة"[٣٤]، وما يدفعها إلا انتشار الأخلاق الإسلامية الدافعة لاستئصال الأخلاق الذميمة النابعة من مجافاة الشريعة ومخالفتها [٣٥]، وكانت مجافاتها سببا في ظهور من يقول: "نفسي نفسي"، وألف شخص من هذا الذي لا يفكّر إلاّ بمصلحته الشخصية ولا يبالي بمصلحة الأمة، إنّما ينزل بمنزلة شخص واحد.[٣٦]

---

(٣٢) صيقل الإسلام ١٤٣
(٣٣) صيقل الإسلام ٤٦٤
(٣٤) صيقل الإسلام ٤٦٧ ٤٦٨
(٣٥) انظر صيقل الإسلام ٤٩٦
(٣٦) انظر صيقل الإسلام ٥١٣

الإنسان بداية التغيير المنشود، ولا يمكن أن يكون مؤهلا لدعوة المخالفين من أهل زماننا إلاّ إذا أظهر الإسلام محبوبا وساميا بالامتثال الجميل لأوامره وإظهار الأخلاق الفاضلة [٣٧]، لأنّ الإنسان بالتربية الإسلامية تتكامل إنسانيته، وتتنوّر ذاته وروحه بالإيمان المتضمن لضياء المحبة الإلهية، فيصبح الإنسان سلطانا بهذه العبدية [٣٨]، وأساس تحقيق هذا المقصد، أن يُلْزِم المؤمن نفسه بالإخلاص الذي هو أهم أساس في التربية الإسلامية وأعمال الآخرة.[٣٩]

٦ - إشباع حاجة الإنسان بالحقيقة لا بالأوهام:

رسائل النور أُلّفت في لغتها ومضمونها وفق استحقاقات اللحظة التاريخية التي وُلِدَت فيها، كما يكون من مقاصدها الرئيسة التنبيه إلى الركائز الأساسية التي تلبي حاجة الإنسان عبر الزمان، فمن ذلك أنّها ترمي إلى بعث شعور كل مسلم بل كل إنسان في قرارة نفسه أنّه بحاجة إلى تربية روحه وتزكية نفسه وتنمية عقله وتوسيع آفاق خياله، وإذا كان يتلمس مبتغاه من مظانه من الكتب.. فإنّ رسائل النور تختصر له المسافة وتيسّر له العبارة، وتقتصد له في الأوقات والطاقات، فوضع الأستاذ بديع الزمان النورسي بين يدي الراغب في التربية الحقّة، كتابه القيّم ينتفع منه كلّ مسلم، بل وكلّ إنسان، ليرى نمطاً جديداً وفريداً من أساليب التزكية والتربية، قلما يجده في كتاب آخر؛ حيث انه يمزج أدق الموازين العقلية والمقاييس المنطقية بأرفع الأشواق القلبية وأسطع التفجرات الروحية ضمن أمثلة ملموسة تكاد لا تخفى على أحد، آخذاً بيد القارئ برفق، متجولاً معه في ميادين النفس والآفاق، مبيناً له ما توصل إليه من نتائج يقينية،

---

(٣٧) انظر صيقل الإسلام ٥٣٤
(٣٨) انظر الكلمات ٣٧١
(٣٩) انظر اللمعات ٣٠٩

بعد تجارب حقيقية خاض غمارها تحت إرشاد القرآن الكريم.. بمعنى إنني أردت أن أبيّن بهذا التحقيق هذا المنهج القرآني الفريد لكل مسلم، بل لكل إنسان."[٤٠]

الغرض الأهم أن ننتبه إلى المعنى الذي تعطيه الأخلاق للحياة، إنّها تسعفنا بدفع العبثية، فتتجاوز الأخلاق بالمتخلّق الاقتناع بأنّ وظيفة حياته حُسْنُ المحافظة على النفس والتربية المدنية وخدمة البطن والهوسات، والاستجابة لمطالب الجسد، يتجاوز كلّ ذلك ويجعل الإنسان المؤمن مركز الكون فيتعامل مع مكوّناته بعين الشفقة والرحمة، هي وظيفة تسري في جميع الأشياء صغيرها وكبيرها.[٤١]

الخاتمة

الغاية القصوى للإنسانية والوظيفة الأساسية للبشرية هي التخلّق بالأخلاق الإلهية، تلك هي عبارة الأستاذ بديع الزمان، وهو اختيار مضبوط واضح، يقرر أنّ "الذين هم في مسار النبوة، حكموا حكماً ملؤه العبودية الخالصة لله وحده، وقضوا:أنّ الغاية القصوى للإنسانية والوظيفة الأساسية للبشرية هي التخلق بالأخلاق الإلهية"، تلك الأخلاق التي مصدرها بيّن من عنوانها "الإلهية"، وهي لذلك ذات تأثير فعّال في حياة الإنسان المسلم، وهي مبعث الحيوية في التي يستصحبها في شعاب الحياة، فتُحلي صاحبها بالسجايا السامية والخصال الحميدة – التي يأمر بها الله سبحانه – وذلك حين يَعْلَم عجزَه فيلتجئ إلى قدرته تعالى، ويرى ضعفَه فيحتمي بقوته تعالى، ويشاهد فقره فيلوذ برحمته تعالى، وينظر إلى حاجته فيستمد من غناه تعالى، ويعرف قصوره فيستغفر ربه تعالى،

(٤٠) المثنوي العربي النوري ٢

(٤١) انظر المثنوي العربي النوري ٣٨٢ ، ٤٠٨

ويلمس نقصه فيسبّح ويقدّس كماله تعالى.[٤٢] حتى تغدو تلك الخلال الحميدة حالا يطرد الشلل والسلبية، ويدفع إلى بعث الحركية الإيجابية في حياة المسلم، قدوته في تحقيق هذا المقصد الأنموذج الأكمل للتخلّق سيدنا محمد ﷺ ومن تحقّق بهذا الأنموذج الأكمل، تحوّلت حياته بفعل التخلّق إلى حركة دائبة تستغرق كل الحياة.

الحياة المعيشة تسوّغ الاهتمام بسؤال الأخلاق، فهو مظهر الالتزام بالإسلام في عقائده وشرائعه، يدفع إلى أخلقة جميع مجالات الحياة، وهو دُربة حقيقية للترقي في سلّم المراقي التربوية والروحية، وفي كلّ ذلك إشباع لحاجة الإنسان بالحقيقة لا بالأوهام، وفساد الأخلاق في العصر الحديث حجة إضافية وقوية لضرورة بعث سؤال الأخلاق والعناية وفق الصيغة التي رافع عنها وأسس الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي، ولاشكّ أن العناية بهذه الصيغة قيمة أساسية في بعث الفعالية في حياة المسلمين كافة، فهو مسلك مفيد للجميع بصرف النظر عن مواطن مرابطتهم، وهو قيمة إذا وجّدت في أي نوع من أنواع المرابطة زادتها بهاء ونقاء وفضلا وقدرة على التواصل مع المخالفين فضلا عن الموالفين، إنّ الأخلقة أو التخلّق جسر مودّة حقيقية ومبعث الحياة في الحياة، إذ الحياة بدون تخلّق أسوء حالا من الموت.

---

(٤٢) انظر الكلمات ص: ٦٤٢

إحياء الأخلاق في الممارسة السلوكية عند النورسي

دة. سعاد الناصر
جامعة عبد المالك السعدي
تطوان- المغرب

لا تنبع قيمة الاشتغال بموضوع الأخلاق من كونها تحتل رؤية مركزية في المنظومة الإسلامية،فقط، ولكن، ولربما بدرجة أعمقَ، لأنها مجال خصب لتقليب النظر، وانتهاج منهجيات متعددة في التناول والتحليل، وهي مناسبةٌ لإبراز المفارقات المهولةِ بين رؤية القرآن والسنة، وبين مآلات تمثُّل الأخلاقِ والاهتداءِ بهديها في واقع المسلمين. وإذ إنه من العسير أن يتم تناولُ موضوعِ الأخلاق في شموليته وتعدد منهجياته خلال مداخلة مختصرة في الزمان والأهداف والأفكار، فلا بأس أن يصار إلى منطق الأولويات، فيُشرعَ في إبراز الرؤية الفلسفية للأخلاق عند النورسي، ومدى إسهامه في تنزيلها على الواقع والممارسة السلوكية، وجعلها بنيانا مرصوصا يتيح إمكانات التحليل والمقارنة.

وقد حاولت تتبعَ مواردِ حديثِ النورسي عن الأخلاق في العديد من رسائله، فلاحظت، استقراءً، أن نظريته الأخلاقيةَ تقوم على مصدرين أساسيين:

١- القرآن الكريم باعتبار أن الرسائل ليست كالمؤلفات الأخرى التي

تستقي معلوماتها من مصادرَ متعددةٍ من العلوم والفنون. فلا مصدرَ للرسائل إلا القرآنُ، ولا أستاذَ لها إلا القرآنُ، ولا ترجع إلا إلى القرآن، ولم يكن عند المؤلف أيُّ كتاب آخرَ حين تأليفها. فهي ملهمةٌ، مباشرةً، من فيض القرآن الكريم، وتنزل من سماء القرآن ومن نجوم آياته الكريمة[١]. كما أنها برهان باهر للقرآن الكريم، وتفسير قيم له، وهي لمعة براقة من لمعات إعجازه المعنوي، ورشحة من رشحات ذلك البحرِ، وشعاع من تلك الشمس، وحقيقة ملهمة من كنز علم الحقيقة، وترجمة معنوية نابعةٌ من فيوضاته. وباعتبار أن القرآن الكريم الحقيقةُ المطلقة والمركزية عند المسلمين التي تحتوي رسالةَ الله المتميزةَ بدلالات قيمتها الثابتة والدائمة، من مرتكزاتها منظومةٌ أخلاقية متكاملة تعقد الصلة بين الإنسان وخالقه، وبينه وبين الكون من حوله ابتداء من ذاته إلى مجتمعه إلى أخيه الإنسان أينما كان إلى الطبيعة من حوله، يلخصها النورسي في قوله بأنها "نظام الأخلاق الذي يطبع صورةَ الروح الإنسانية بماهيتها، ويسلك بها مدارجَ التربية والمجاهدة، لاكتساب معناها الكوني"، أي أن الأخلاق نظام ونسق كلي تقوم عليه تصرفات الإنسان وعلاقاته في هذا الكون.

٢- السنة النبوية باعتبارها القدوةَ الحسنة أو التطبيق العملي لكل الأخلاق الإنسانية المتضمنة في القرآن الكريم، بحيث يمثل ﷺ واقعا حيا وسلوكا طبيعيا يزاوج بين القول والفعل، يقول النورسي: "إن أعظم معجزة للرسول الكريم ﷺ بعد القرآن الكريم هو ذاته المباركة، أي ما اجتمع فيه ﷺ من الأخلاق السامية، والخصال الفاضلة، وقد اتفق الأعداء والأولياء على أنه أعلى الناس قدراً، وأعظمهم محلاً، وأكملهم محاسن وفضلا"[٢]، ويقول في نص آخر مبينا كمال

---

(١) الملاحق، ملحق قسطموني ص٢٢٠٢٢١

(٢) المكتوبات: ٢٣٦

أخلاقه ﷺ: "لما كان الرسول ﷺ قد خلق في أفضل وضع وأعدلِه، وفي أكمل صورة وأتمها، فحركاته وسكناته قد سارت على وفقِ الاعتدال والاستقامة، وسيرتُه الشريفة تبين هذا بيانا قاطعا وبوضوح تام بأنه قد مضى وفق الاعتدال والاستقامة في كل حركة من حركاته، متجنبا الإفراط والتفريط"[٣].

ولعله من الطبيعي أن يُعتمد هذان المصدران من قبل النورسي، لكن خصوصيةَ النورسي هنا لا تنحصر في الاستشهاد بنصوص القرآن والسنة، وإنما يتجاوز ذلك إلى جعل هذين المصدرين حاكمين في قراءة مختلِف القيمِ الأخلاقية وخلفياتها الفلسفية عند الغرب وغيره، فمصدرية القرآن والسنة في النظرية الأخلاقية النورسية مصدريةٌ حاكمة، وليست مصدريةً شاهدة. وهي بذلك تنفي أن تكون القيمُ الأخلاقية شخصية المنشأ، وإنما مصدرها الله تعالى، لأنه تعالى لم يخلق الإنسان ويلقِ به في محيط الأوامر والنواهي، وإنما غرس فيه استعدادا فطريا لاستقبالها وتوجيهِ تصريفها خيرا أو شرا، وزوده بقوى مختلفةٍ ليؤدي وظيفة القصد من خلقه، يقول مشبها له بالبذرة: "فقد أودعت في ماهيته أجهزةٌ مهمة من لدن القدرة الإلهية، ومنح برامجَ دقيقةً وثمينة من لدن القدر الإلهي، فإذا أخطأ هذا الإنسانُ التقديرَ والاختيار، وصرف أجهزته المعنوية تحت ثرى الحياة الدنيا وفي عالم الأرض الضيق المحدود، إلى هوى النفس، فسوف يتعفن ويتفسخ كتلك البذرةِ المتعفنة.(..) أما إذا ربى الإنسان بذرةَ استعداده وسقاها بماء الإسلام، وغذاها بضياء الإيمان تحت تراب العبودية موجها أجهزتهَا المعنوية نحو غاياتها الحقيقية بامتثال الأوامر القرآنية، فلا بد أنها ستنشق عن أوراق وبراعمَ وأغصان تمتد فروعها وتتفتح أزاهيرُها.."[٤].ويضيف في مناسبة أخرى:

---

(٣) مرشد أهل القرآن. ص٩٥.

(٤) الكلمات.ص ٣٦٢_٣٦٣

"إن الإنسان أرسل إلى الدنيا ضيفا وموظفا، ووهبت له استعداداتٌ مهمة جدا، وعلى هذا أسندت له وظائفُ جليلة، وليكد وليسعى لتلك الغايات والوظائف العظيمة فقد رغّب ورهّب لإنجاز عمله، ولهذا فإن وظيفتَه (أي الخليفة) ليست الانهماكَ بالحياة الدنيا والاهتمام بها كالحيوانات، وإنما السعيُ والدأب لحياة خالدة"[٥].

ونتيجةً لحاكمية هذين المصدرين في النظرية الأخلاقية النورسية، صار النورسي لا يتحدث عن خلق ولا يفسر خلقا ولا يربط خلقا بخلق ولا يجعل خلقا سببا لخلق ولا نتيجةً له إلا وهو يستحضر نصوصَ القرآن والحديث، مما يعني أن هذه النصوصَ لا تقدم له شهادةً عن دلالات الأخلاق فحسب، وإنما تعطيه منهجَ التعامل مع الأخلاقِ وفلسفتِها وطبيعتِها ودورِها في ضبط السلوك وتوجيهه.

من هنا كان حديثُه عن الأخلاق طويلا ومتشعبا، يستوعب الرسائلَ كلَّها، فكانت كأنها ترجمة معبرة لقول رسول الله" إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق".

ويبدو أن أحسن وسيلةٍ إلى تمثل مفاهيمه الأخلاقيةِ وطبيعتها ودورها، هو أن تسلكَ في صِنافةٍ تعتمد الأصولِ الأخلاقيةِ الكبرى، وتُلحقَ بها فروعُ الأخلاقِ، في منهجية تعتمد الأصل والفرع، والسبب والنتيجة، والمقدمة والغاية. وهكذا تمدنا هذه المنهجية بان الأصول الأخلاقية عند النورسي هي:

العدالة وهي أصل يضم الأخلاقَ الآتية: الصدق والوفاء، والصبر،الصفح، الشجاعة، التسامح، التساند.

المحبة وهي أصل أخلاقي يضم الأخلاق الآتية: الأمل، و الإخاء، والتواضع، الإخلاص،الحلم، النصح،

---

(٥) الكلمات.ص٣٧١

أولا: العدل (باعتباره خلقا سلوكيا أصليا، ينتج عنه مجموعةٌ من الأخلاق السلوكية الفرعية)

يعتبر النورسي أن مقاصد القرآن الأساسيةَ وعناصرَه الأصليةَ المبثوثة في كل جهاته "أربعةٌ: إثباتُ الصانع الواحد، والنبوةُ، والحشر الجسماني، والعدل"(٦). والناظم لرسائل النور هو روح الإسلام التي تشع بدلالات العدل واحتشاد معانيه في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، من أجل إصلاح الذات الإنسانية ومراجعة نسقها القِيمي الذي يتحكم في أفعالها، وفي الفعل الاجتماعي بشكل عام. لذا كان الأمر بالعدل ومقاومةِ الظلم صريحا لا يحتاج إلى تأويل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ (النحل: ٩٠). وهذا يعني إحياءَ هذه القيمةِ في الحياة الإنسانية، والعملَ على تحقيقها في عالم الواقع. فالعدل مفهوم شامل، يعبر عن روح الإسلام ومقاصده، ويستغرق جميعَ مناحي الحياة الفردية والاجتماعية، بكل مساربها وتشعباتها، ويشملُ الكونَ والإنسان وسائرَ الكائنات، ويصبغها بصبغة الحق. ولذلك يعد من أهم القواعدِ التي تنتج عنها مجموعةٌ من الأخلاق التي تؤدي إلى سلوكيات معينة، من حيث إعطاءُ كلِّ ذي حق حقَّه. وتقود الإنسانَ إلى تجاوز الممارسات المفضيةِ إلى الجَور والعسف، إذ أن معظمَ الشرور تأتي نتيجةَ الإحساس بالظلم وعدم المعاملةِ المتساوية بين الناس جميعاً. من هنا كان مفهوم العدالة عند النورسي يقتضي المساواةَ في الحقوق والواجبات في حقِّ الخالق والخلق، يقول: "إن العدالة التي لا مساواةَ فيها ليست عدالةً"(٧). و يفرق بين المفهوم القرآني للعدالة، ومساواتِها للناس وحمايتها لكل فرد من أفراد المجتمعات الإنسانية، وبين من تمكنت الأنانية من نفسه فيقول:

---

(٦) صيقل الإسلام. ص ٢٩.
(٧) الكلمات . ص ٨٧٣

"العدالة القرآنية المحضة لا تهدُر دم بريء ولا تزهق حياته حتى لو كان في ذلك حياةُ البشرية جمعاء، فكما أن كليهِما في نظر القدرة سواءٌ، فهما في نظر العدالة سواء أيضا. ولكن الذي تمكن فيه الحرص والأنانية يصبح إنسانا يريد القضاء على كل شيئ يقف دون تحقيق حرصه حتى تدميرَ العالم والجنس البشري إن استطاع" [٨]. فالذي لا يتخلق بقيم العدل إنسان تتحكم فيه الأنانية والظلم والعداء، ويصبح لزاما عليه إصلاحُ نفسه، لأنه "منبعُ الشرور الأخلاقية، وبالتالي وجب عليه إصلاحُ أنانيته التي هي مصدرٌ لمصائبَ ومعاصيَ كثيرةٍ، أشنعُها وأكثرها سوءً المصيبةُ الدينية، والتي تتمثل في الكفر سببِ كل الشرور".

وأي أخلاق أو تنظيم أو جمال في المجتمع يرجع بالأساس إلى خلق العدالة وروحها المستمدة من تجليات الأسماء الحسنى: "وقد ثبت ببراهين دامغةٍ في أغلب أجزاء رسائل النور أن فعل التنظيم والنظام الذي هو تجل من تجليات الحِكم والحكيم، وأن فعل الوزن والميزان الذي هو من تجليات العدل والعادل، وأن فعل التزيين والإحسان الذي هو تجل من تجليات اسم الكريم والجميل، وإن فعل التربية والإنعام الذي هو تجل من تجليات اسم الرب الرحيم، كل فعل من هذه الأفعال هو فعلٌ واحد، وحقيقة واحدة، تشاهد بوضوح في آفاق الكون كلِّه"[٩].

وإذا لم نستطع الإحاطة بكل الأخلاق المتفرعة عن العدل التي ركز عليها النورسي يمكن أن نتوقف عند خلق الصدق، يقول النورسي: "الصدق هو أس أساس الإسلام، وواسطة العقد في سجاياه الرفيعة ومزاجُ مشاعره العلوية. فعلينا

(٨) المكتوبات. ص ٦٠٨.
(٩) اللمعات. ص ٥١٩.

أن نحيي الصدق الذي هو حجر الزاوية في حياتنا الاجتماعية في نفوسنا ونداوي به أمراضنا المعنوية"[١٠].

ثانيا: المحبة: باعتباره أصلا أخلاقيا ثانيا يتفرع عنه مجموعة الأخلاق:

الأصل الثاني في الأخلاق هي المحبة، وعنها تتفرع مجموعة من القيم الأخلاقية، يقول مخاطبا نفسَ الإنسان: "يا نفسيَ المحبةَ لنفسها، ويا رفيقي العاشقَ للدنيا، اعلمي أن المحبة سببُ وجود هذه الكائنات، والرابطةُ لأجزائها وأنها نور الأكوان وحياتها. ولما كان الإنسان أجمع ثمرةٍ من ثمرات هذا الكون، فقد أُدرجت في قلبه – الذي هو نواة تلك الثمرة – محبةٌ قادرة على الاستحواذ على الكائنات كلها"[١١]

إن النورسي ينظر إلى خلق المحبة بصفته قيمةً محورية تكون أساسا لاستقرار الإنسان النفسي وارتقائه الروحي، كما تكون نواةً تنبت مجموعةً من القيم الأخلاقية الأخرى كالإخلاص والإخاء والحلم وغيرها، ويستهدفه بوصفه أسلوبا ناجعا من أساليب التربية والسلوك الذي يصلح النفَس ويسعى بها إلى إصلاح المجتمع وتغليب الخير فيه.يقول:

"إن لم تكن تصرفات المؤمن وحركاتُه وفق الدساتير السامية التي وضعها الحديث الشريف: الحب في الله والبغض في الله والاحتكام إلى أمر الله في الأمور كلها، فالنفاق والشقاق يسودان.. نعم إن الذي لا يستهدي بتلك الدساتير يكون مقترفا ظلما في الوقت الذي يروم العدالة"[١٢]

---

(١٠) صيقل الإسلام، الكلمة الثالثة من الخطبة الشامية. ص٥٠٦.

(١١) الكلمات.ص ٤١٠.

(١٢) المكتوبات ص٣٤٨

وهذا الخلق لا يجب أن يظل عائما أو خاضعا لمثاليات غيرِ محققة، وإنما يعتبر معطلا وفاقدا لفاعليته إذا لم يسند إلى عمل ملموس ينتفع به الفرد و تنتفع به الأمة، فيقوم النورسي باستقراء النصوص وتعديتها إلى واقع المسلمين وحياتهم الخاصة والعامة، ابتداء من الزوجة والأبناء والوالدين إلى أفراد الأمة، بل الإنسانية جمعاء، وصولا إلى محبة الله عز وجل. وأواصر المحبة المفضيةِ إلى الأخوة والتعاون والوحدة ليست شكليةً أو لسانية، وإنما تستمد نبعها من القرآن الذي تنتظم كلَّ آية منه روحُ المحبة وذوقُها. ولما كان العداء ظلما فإنه والمحبةَ نقيضان[١٣]،

ولعل أحسنَ الثمرات التي تنضج في قلب محب ونفس تواقة إلى المحبة خلق الإخلاص، فالإنسان الذي تشع المحبة الحقيقية منه يتجرد من أنانيته ومن غروره وإعجابه بنفسه ومن ريائه ومن حسده وغيرته ومن مختلف الأمراض التي تسري منه إلى المجتمع فتنخره وتفتك به. وقد حدد النورسي تسعة عناصر يستطيع بها الإنسان أن يظفَر بالإخلاص، وهي تدور حول غايتين اثنتين: العدالة والمحبة[١٤].

فالأصل في العلاقات الاجتماعية والإنسانية، أن تكونَ علاقاتٍ قائمةً على المحبة والمودة والتآلف، حتى ولو تباينت الأفكار والمواقف، بل إن هذا التباينَ هو الذي يؤكد ضرورة الالتزام بهذه القيم والمبادئ

يقول: "لا تجد في القرآن آيةً إلا توحي بمحبة شديدةٍ لله.. وفيه حث كبير على الفضيلة - خلا تلك القواعدَ الخاصةَ بالسلوك الخلقي - وفيه دعوة كبيرة إلى تبادل العواطف، وحسن المقاصد، والصفح عن الشتائم، وفيه مقت للعجب

---

(١٣) انظر: المكتوبات. ص٣٤٠.

(١٤) انظر اللمعة ٢٠ و٢١ من اللمعات التي خصصها للإخلاص.

والغضب، وفيه إشارة إلى أن الذنب قد يكون بالفكر والنظر، وفيه حض على الإيفاء بالعهود حتى مع الكافرين، وتحريض على خِفض الجناح والتواضع، وعلى استغفار الناس لمن يسيئون إليهم، لا لعنِهم. ويكفي جميعُ تلك الأقوال الجامعة، المملوءة حكمة ورشداً، لإثبات صفاءِ *قواعد الأخلاق* في القرآن. إنه أبصر كلّ شيء" (١٥)

أركان النظرية الأخلاقية النورسية:

يستوحي النورسي نظريته من المنظومة الأخلاقية المبثوثة في القرآن الكريم، المتميزة بمخاطبتها للإنسان في أبعاده كلها، والمطبقة بنوع من الكمال والجمال في شخصية محمد ﷺ، بوصفه مربيا ومرشدا، ومثلا وقدوة. من هنا كان خطاب النورسي يتضمن الكلياتِ الأخلاقيةَ، ويتميز بشموليته وواقعيته وكليته، فيتجه إلى كل إنسان ابتداء من نفسه وتقديمها قدوة. فالأخلاق عنده ليست مثالية أو نظرية، وإنما هي أخلاق عملية، أي تنبني على العمل، وتنتج عملا، تجعل المسلم يعيش متوازنا، ينسجم إيمانه واقتناعه وتصوره مع ممارساته السلوكية والعملية. لذا تنقسم الأخلاق عنده إلى أخلاق قلبية كالمحبة وأخلاق سلوكية كالعدل، تصب كل منهما في الأخرى، فالأخلاق القلبية تطهر النفس وترتقي بها، فلا يصدر عنها إلا أفعالٌ منضبطة بالأخلاق السلوكية باعتباره لهاا الضابطة(١٦). ويرى أن أس أساس الفساد والظلم كلمة واحدة: "إن شبعت فلا علي أن يموت غيري من الجوع"، وأن منبع الأخلاق الرذيلة كلمة واحدة أيضا: "اكتسب أنت لآكل أنا، واتعب أنت لأستريح أنا"، وهي دلالات سارية في المجتمع الإنساني، تدفع إلى الحقد والحسد والصراع.

---

(١٥) إشارات الإعجاز: ٢٧٢

(١٦) انظر اللمعة ٢١ من اللمعات التي يشرح عمليا كيفية ارتباط الإخلاص بوصفه خلقا قلبيا بالعمل والسلوك.

ولعل التحديداتِ التاليةَ تكشف عن أركان النظرية الأخلاقية عند النورسي:

- **الأخلاق بين الذاتية والإلزامية**: إن "ممارسة الأخلاق قد تتبع أحد طريقين: إما طريق الإلزام الذي هو عبارة عن جملة من الأوامر والنواهي التي تُفرض من الخارج على إرادة الإنسان، وإما عن طريق الاعتبار الذي هو عبارة عن جملة من المعاني والقيم التي يستنبطها الإنسان تلقائيا مما يشهده من أفعال ويتلقاه من أقوال"(١٧). وقد وثق القرآن الصلة بين التوق الذاتي للتخلق والاستجابة للخطاب الإلهي، من خلال الإتيان بالأوامر والنواهي في سياق المحبة وكسب رضا الله عز وجل، وذلك من قبيل قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللّٰه يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة:١٩٠)، وقوله: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللّٰه يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران:٧٦)

وهذا يكشف أن المنظومة الأخلاقية الإسلامية ليست سيفا مسلطا على الرقاب وضعت لإلزام الخلق وإرهابهم وإنما من أجل جعلها سماتٍ أساسيةً في شخصية المسلم ومقوما لسلوكياته ومحفزا لها، وقد كان النورسي مستوعبا العلاقة القائمة بين حقيقة الإيمان والتخلق، فالمسلم لا يأتي الأخلاق ملزما أو مكرها عليه لأنه لا خيار لديه، وإنما لأن نفسه متشبعةٌ بها، فتصدر عنه في كل سلوك يسلكه أو عمل يقوم به. يقول: " إن القرآن يجد الحلول لجميع القضايا، ويربط ما بين القانون الديني والقانون الأخلاقي، ويسعى إلى خَلق النظام، والوحدة الاجتماعية، وإلى تخفيف البؤس والقسوة والخرافات. إنه يسعى إلى الأخذ بيد المستضعفين، ويوصي بالبر، ويأمر بالرحمة. وفي مادة التشريع وضع قواعد لأدق التفاصيل للتعاون اليومي، ونظم العقود والمواريث، وفي ميدان

---

(١٧) سؤال الأخلاق. طه عبد الرحمن. ص ١٥٦.

الأسرة حدد سلوك كلِّ فرد تُجاه معاملة الأطفال والأرقاء والحيوانات والصحة والملبس... الخ" فهذه ممارسات خلقية وليست مجرد قوانينَ ملزمةٍ.

– **الأخلاق بين الفردية والكونية**: يشترك جميع البشر في الفطرة، يقول تعالى: "فطرةَ الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله"، فالإنسان بفطرته يميز بين ما هو خير وما هو شر، من هنا يمكن اعتبار الأخلاقِ كونيةً، يقول النورسي: "إذا كانت الأخلاق فطرة فطر عليها الإنسان، فإن دور الدين يتمثل في تثبيت هذه الفطرةِ وتكميلها وتهذيبها"(١٨). والبناء الأخلاقي للإنسان يتطلب الحرية الفردية، والتي هي حرية القرار، والمسلم يمارس حريته الفردية من خلال عبوديته الخالصة لله عز وجل، ويتحمل مسؤولية وجوده الإنساني، ويسعى إلى آفاق الكون من خلال ارتباطه الخلقي به، يقول النورسي: "إن لكل أحد علاقاتٍ بالمحبة والشفقة مع أقاربه ثم مع أفراد عشيرته، ثم مع أفراد ملته، ثم مع أفراد نوعه، ثم مع أبناء جنسه، ثم مع أجزاء الكائنات، بحيث يمكن أن يتألم بمصائبهم، ويتلذذ بسعادتهم، وإن لم يشعر"(١٩)، وهي رؤية كونية ترفع الإنسان بمعراج الخلق؛ ليرتبط بعلاقات المحبة والشفقة؛ مع جميع الكائنات في هذا الكون الفسيح. فتمتد أخلاقه بذلك لتسع الكون كلَّه.

– **الأخلاق بين العمومية والنسبية**: وتطبيق الأخلاق عمليا مسألة نسبية، قد يختلف تطبيقها من شخص إلى آخر، ومن موقف إلى آخر يقول: "إن الفضائل والأخلاق، وكذا الحسن والخير، أغلبها أمور نسبية، تتغير كلما عبرت من نوع إلى آخر، وتتباين كلما نزلت من صنف إلى صنف، وتختلف كلما بدلت مكانا بمكان، وتتبدل باختلاف الجهات، وتتفاوت ماهيتها كلما علت من الفرد إلى

---

(١٨) الخطبة الشامية, ص ٨٥.

(١٩) المثنوي العربي النوري. ص.٤٤٨.

الجماعة، ومن الشخص إلى الأمة. فمثلا: الشجاعة والكرم في الرجل تدفعانه إلى النخوة والتعاون، بينما تسوقان المرأة إلى النشوز والوقاحة وخرق حقوق الزوج. ومثلا: إن عزة النفس التي يشعر بها الضعيف تجاه القوي، لو كانت في القوي لكانت تكبرا، وكذا التواضع الذي يشعر به القوي تجاه الضعيف، لو كان في الضعيف لكان تذللا، ومثلا عن جدية ولي الأمر في مقامه وقار، بينما لينه ذلة، كما أن جديته في بيته دليل على التكبر، ولينه دليل على التواضع.."[٢٠]، وهكذا يقدم مجموعة من الأمثلة التي تبين نسبية تطبيق الأخلاق، ويقول أيضا: "عليك أن تصدق في كل ما تتكلمه ولكن ليس صوابا أن تقول كل صدق، فإذا ما أدى الصدق أحيانا إلى ضرر فينبغي السكوت، أما الكذب فلا يسمح به قطعا، عليك أن تقول الحق في كل ما تقول ولكن لا يحق لك أن تقول كل حق، لأنه إن لم يكن الحق خالصا فقد يؤثر تأثيرا سيئا فتضع الحق في غير محله".[٢١]

نقد النورسي للازدواجية الأخلاقية:

يعتبر النورسي أن استناد الحضارة على الأساس المادي المصلحي انحرف بها عن القصد من الخلق، وصادم توجه الفطرة الإنسانية، وجنح بها نحو الظلم والاستغلال. ولذا يقدم طبيعة الفرق بين تربية القرآن وتربية الفلسفات المادية، ولعل هذا النص على طوله، يقدم الفرق بين النظرية الغربية والنظرية الإسلامية" حكمة الفلسفة ترى القوة نقطة استناد في الحياة الاجتماعية، وتهدف المنفعة في كل شيء، وتتخذ الصراع دستورا للحياة، وتلتزم بالعنصرية والقومية والسلبية رابطة للجماعات، أما ثمراتها فهي إشباع رغبات الأهواء والميول النفسية التي من شأنها تأجيج جموح النفس وإثارة الهوى، ومن المعلوم لأن شأن القوة هو

---

(٢٠) صيقل الإسلام ص.٣٣٣.
(٢١) الخطبة الشامية، ص :٥٨.

الاعتداء، وشأن المنفعة هو التزاحم، إذ لا تفي لتغطية حاجات الجميع، وتلبية رغباتهم، وشأن الصراع هو الجدال والنزاع، وشأن العنصرية هو الاعتداء، إذ تكبر بابتلاع غيرها وتتوسع على حساب العناصر الأخرى،... أما حكمة القرآن الكريم، فهي تقبل الحق نقطة استناد في الحياة الاجتماعية بدلا من القوة، وتجعل رضا الله سبحانه ونيل الفضائل هو الغاية بدل من المنفعة، وتتخذ دستور التعاون أساسا في الحياة بدلا من دستور الصراع، وتلتزم برابطة الدين والروح والوطن لربط فئات الجماعات بدلا من العنصرية والقويمة والسلبية، وتجع لغاياتها الحد من تجاوز النفس الأمارة ودفع الروح إلى معالي الأمور وإشباع مشاعرها السامية لسوق الإنسان نحو الكما ل والمثل الإنسانية. إن شأن الحق هو الاتفاق، وشأن الفضيلة هو التساند، وشأن دستور التعاون هو إغاثة كل الآخرين، وشأن الدين هو الأخوة والتكاثف، وشأن إلجام النفس وكبح جماحها وإطلاق الروح وحثها نحو الكمال وسعادة الدارين".

يكشف لنا هدا النص المعطيات التالية: القوة في مقابل الحق، العدل في مقابل الظلم، المنفعة مقابل رضا الله، الصراع في مقابل التعاون. وهذه الازدواجية طبعت الوجدان الفلسفي المادي وحكمت عليه بالمنفعة الذاتية،

رسالية الأخلاق عند النورسي:

عادة ما يفهم في الرسالية الدعوة الكلامية للآخر عن طريق إيصال الدين إليه، وإقناعه به عبر مختلف وسائل الإقناع الكلامية والحجاجية، لكن النورسي يقدم بعدا جديدا لمفهوم رسالة الدين ويتمثل ذلك بتأكيده أن الرسالية تتم بتمثل أخلاق القرآن وممارستها أكثر مما تتم بالكلام والقول والإقناع اللفظي، وهذا يعني أن رسالية الأخلاق معطى سلوكي قبل أن يكون قولي، بل إنه يجعل من هذه الرسالية الأخلاقية محفزا ودافعا لدخول الناس إلى الإسلام، وهذا واضح

في قوله بأسلوبه الشرطي الجازم المؤكد: "لو أننا أظهرنا بأفعالنا وسلوكنا مكارم أخلاق الإسلام وكمال حقائق الإيمان لدخل أتباع الأديان الأخرى في الإسلام جماعات وأفواجا"(٢٢)

إن حسن الخلق والتعامل الأخلاقي والحضاري مع الآخرين، قد يحولهم من موقع العداوة والخصومة إلى موقع الولاء والانسجام، يقول تعالى: ﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت: ٣٤). والشخصية المطلوبة التي تمثل الإسلام وقيم القرآن هي المتخلقة بأخلاق القرآن(٢٣) التي يمكن لها أن تعيد بناء حضارة إنسانية تتناغم فيها الأخلاق بين التصور والسلوك.

وأختم بقول النورسي رحمه الله: "إن مقام الإنسان الراقي وتفوقه على سائر الأحياء، وامتيازه عليها إنما هو لسجاياه السامية"(٢٤)

(٢٢) الخطبة الشامية، ص : ٢٧.
(٢٣) انظر: الكلمات. ص٦٤٢.
(٢٤) الشعاعات. الشعاع ١١. ص ٢٧٩.

دور رسائل النور
في صياغة شخصية الإنسان

ذ. إحسان قاسم الصالحي
مركز بحوث رسائل النور
استانبول

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد؛

عقب المحاضرة التي ألقيتها حول ترجمة رسائل النور في قاعة كلية الآداب في الدار البيضاء بالمغرب[1]. سألني أحد الطلبة:

"ما الذي دفعك للقيام بهذا المجهود الضخم بترجمة كليات رسائل النور في تسعة مجلدات من اللغة التركية إلى العربية، فإن جميع المصادر الإسلامية هي باللغة العربية ومنها تُترجم إلى اللغات الأخرى، فما الذي دفعك بالسير المخالف هذا؟.

وكان جوابي جملة قصيرة:

---

(١) وذلك في فبراير سنة ١٩٩٨

أخلاق طلاب النور وسلوكهم الإسلامي. وكل من قرأ رسائل النور هو طالب النور، ولا أزكّي على الله أحداً.

نعم، عند لقائي طلاب النور في سنوات السبعينات لمست الإسلام حياً نابضاً ومعيشاً في حلّهم وترحالهم، بل كشفت فيهم صفاء الإيمان ونقاء الوفاء وصدق الإخلاص ودوام العطاء، واستشعرت بالاطمئنان والسكينة تغمران قلوبهم.

لست بدعاً في هذا الإعجاب تجاه هذا الإسلام الحي والإيمان الفتي. فكثيرون جداً ممن التقوا طلاب النور لمسوا هذا الإيمان الحي وصرحوا به أو كتبوا عما شاهدوه.

فقد عبّر أخونا الأديب "أديب إبراهيم الدباغ" بقلمه السيال عن هذا السلوك الإيماني بعد ما خالطهم لمدة وجيزة فكتب يقول:

"عندكم - يا أخوتي- وجدنا عظمة أصولنا الإيمانية وهي تشع بالنضارة والرّي.. وفي رياضكم وقفنا على منابت جذورنا القرآنية وهي تموج بالخصب وتَسُحّ بالعطاء..ومن بين أيديكم كنا نتناول أبكار المعاني والأفكار في شَدَهٍ وذهول وكأننا لم نكن نعرف الإيمان قبل أن نرتشف معانيَه من كؤوسكم، ولم نكن نعرف القرآن قبل أن نسمعه من بين شفاهكم..فلا والله لا أدري ما أقول: أأنتم بالإيمان تحيَون؟ أم يحيا الإيمان بكم؟ وهل بالقرآن تتحركون أم يتحرك القرآن بكم ؟ فمذ عرفناكم عرفنا كيف يتحول الإيمان في نفس المؤمن إلى يقظة وجدان.. وصحوة فكر.. وهزة ضمير.. ولهفة مشتاق..".[٢]

وكتب الأستاذ الدكتور محسن عبد الحميد:

---

(٢) أديب إبراهيم الدباغ ، سعيد النورسي رجل الإيمان في محنة الكفر والطغيان. دار الأنوار استانبول

"إن من لا يصاحب طلبة النور ولا يخالط أجيالهم الشابة في إيمانهم العميق وهدوئهم البرئ، واخلاقهم العالية ونظافتهم البديعة، ودروسهم الإيمانية المطهرة، لا يعلم مدى عمق أثر الإمام النُّوْرْسي في تربية الجيل الجديد على حب الله ورسوله، ثم حب العلم والفكر والعرفان والتغيير". [٣]

والأمثلة في هذا كثيرة وكثيرة جداً أكتفيت بهذين المثالين.

وساءلت نفسي: كيف نالوا هذا القدر الوافر من السلوك القويم والإيمان العميق الذي ينعكس نوره حتى على ملامحهم ناهيك عن أعمالهم وحركاتهم، على الرغم من حرمانهم من اللغة العربية بل حتى من الحروف العربية، بعد ما فعلت بهم فؤوس الحقد ومعاول الهدم والتخريب ما فعلت ؟.

لا شك أن السر يكمن في رسائل النور التي يقرأونها ويتدارسونها، ولا شيء غيرها.. فلقد حيل بينهم وبين مصادر الإسلام كافة بتغيير الحروف إلى اللاتينية، بل حيل بينهم وبين القرآن الكريم.. وغدت لهم هذه الرسائل المصدر والمرجع لاستلهام حقائق الإيمان. وبفضل الله سبحانه وتعالى استطاعت هذه الرسائل بروحها القرآنية أن تأخذ بأيدي طلابها من الإيمان التقليدي إلى الإيمان التحقيقي والعروج بهم إلى معرفة الله سبحانه وتعالى، معرفة مَن يصدُق عليه حديث جبريل عليه السلام الذي سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام، ثم قال: "ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك".[٤]

هذا الإيمان "*التحقيقي الشهودي*" هو الذي جعل طالب النور وكأنه في معية

---

(٣) مقدمة المؤتمر العالمي الرابع لبديع الزمان سعيد النورسي (نحو فهم عصري للقرآن الكريم:رسائل النور أنموذجاً). سنة ١٩٩٨

(٤) حديث متفق عليه

الله جلّ وعلا "فيفكر دائماً في حضور الخالق الرحيم سبحانه ورؤيته له، أي انه حاضر وناظر إليه دائماً. فلا يلتفت عندئذٍ إلى غيره، ولا يستمد من سواه. حيث النظر والإلتفات إلى ما سواه يخل بأدب الحضور وسكينة القلب".(٥)

هذا الإيمان "التحقيقي الشهودي" هو الذي جعل إيمانه *بالملائكة إيماناً عميقاً حتى يستشعر وجودهم معه*، فيأنس بهم كل حين..حيث أثبتت له رسائل النور وجود الملائكة والعالم الروحاني كثبوت وجود الإنسان والكائنات الأخرى من حوله.

هذا الإيمان "التحقيقي الشهودي" هو الذي جعل *محبته للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وسنته الشريفة مهيمنة على قلبه لا تغادره ليل نهار حتى في أبسط آدابها*، لما تعلم من الرسائل أن " شعاع السنة المطهرة هو الإكسير النافذ، فهي كافية ووافية لمن يبتغي النور، فلا داعي للبحث عن نور في خارجها".(٦)

هذا الإيمان "التحقيقي الشهودي" هو الذي جعل *الحياة الآخرة عنده كحياة مشهودة شهادة عين وبصيرة*، لكثرة ما استلهم من الرسائل من دلائل وجودها ويرى في آفاق الكون والحياة من نظائرها.

هذا الإيمان "التحقيقي الشهودي" هو الذي جعل طالب النور المدقق لا يجد في نفسه ضرورة إلى البحث عن مرشد طريقة ليحصل على الحضور القلبي الدائم والمعرفة الإلهية الدائمة. حيث إن رسائل النور قد بيّنت له:

"إن التوحيد الحقيقي- أسمى بكثير من معرفة تصورية مجردة - فهو حكمٌ وتصديقٌ وإذعانٌ وقبولٌ، بحيث *يمكّن المرء من أن يهتدي إلى ربه من خلال كل*

---

(٥) اللمعات ص٢٤٧
(٦) اللمعات ص٩٠

شيء. و يرى في كل شيء السبيل المنورة التي توصله إلى خالقه الكريم، فلا يمنعه شيء قط عن سكينة قلبه واطمئنانه، واستحضاره لمراقبة ربّه".[٧]

أي أن في كل شيء ابتداء من الذرات وانتهاء إلى المجرات، نافذةً تطل على التوحيد، وفي كل منها دلائل وإشارات تدل مباشرة على الواحد الأحد بصفاته الجليلة.

لذا لا يجد طالب النور المدقق ضرورة إلى قول: "لا موجود إلا هو" ليحصل على الحضور القلبي الدائم وتذكر المعرفة الإلهية دائما. كما انه لا يحتاج أيضا إلى قول: "لا مشهود إلاّ هو" كما هو الحال لدى قسم من أهل الحقيقة، لينعم بالحضور القلبي الدائم.. بل تكفيه إطلالة من نافذة الحقيقة السامية:

وفي كل شيء له آية   تدل على أنه واحد

والأستاذ النُّوْرْسي لا ينقل إلى قراء الرسائل هذه الأركان الإيمانية علوماً نظرية مجردة، أو تصورات ذهنية باردة، وإنما ينقل لهم كيانه القرآني في تجربة كونية معرفية خصبة جداً، ذائبة في القرآن الكريم، إذ يقول:

"ما كتبتُ إلاّ ما شاهدت، بحيث لم يبق لنقيضه عندي إمكانٌ وهمي..".[٨]

ويقول:

"لا تحسبن أن ما أكتبه شيء مضغته الأفكار والعقول. كلا! بل فيض أفيض على روحٍ مجروح وقلب مقروح، بالاستمداد من القرآن الكريم، ولا تظنه أيضاً

---

(٧) الشعاعات ص ١٩٧
(٨) المثنوي العربي النوري ص١٠٤

شيئاً سيالاً تذوقه القلوب وهو يزول. كلا! بل أنوارٌ من حقائق ثابتة انعكست على عقلٍ عليلٍ وقلبٍ مريضٍ ونفسٍ عمي".(٩)

ونراه يخاطب القارئ:

"لا تخف من تمرد النفس؛ لأن نفسي الأمارة المتمردة المتجبرة انقادتْ وذلّلت تحت سطوة ما في هذه الرسالة من الحقائق! بل شيطاني الرجيم أُفحم وانخنس.

كُن مَن شئت، فلا نفسُك أطغى وأعصى من نفسي، ولا شيطانُك أغوى وأشقى من شيطاني".(١٠)

فالرسائل إذن دروس قرآنية توافق هذا العصر تتفجر حيوية وتتدفق أفكاراً حارة. وحيث إن أساتذة فضلاء وعلماء أجلاء قد أثبتوا هذا بدلائل قوية تستحق كل تقدير في بحوثهم العلمية التي قدموها في المؤتمرات العالمية والندوات العلمية العديدة (١١)، أحيل إليها وليس لي عليها من مزيد، سوى هذا الذي أقتبسه من كلام الأستاذ الدكتور عشراتي سليمان حيث يقول:

"لم يترك القرآن بصمته الذهبية على روح النُّوْرْسي فحسب، بل لقد حمل تراثه برمته تلك البصمة، إذ جاءت آثار القرآن وخصائصه البنائية والمنهجية والأدائية ملموسة في النص النوري: تكرار تثبيتي، استدعاء توجيهي، استرسال تكميلي، تمثيل توضيحي، تخشيع، تذكير ، تبصير، إدهاش، تحسيس بالطبيعة

---

(٩) المثنوي العربي النوري ص٣١٨

(١٠) المثنوي العربي النوري ١٤-١٥

(١١) انظرالمؤتمر العالمي الثالث والرابع لبديع الزمان سعيد النورسي بإستانبول أيلول سنة ١٩٩٥و١٩٩٨، والندوة الدولية (جهود بديع الزمان سعيد النورسي في تجديد الفكر الإسلامي) ١٨ مارس ١٩٩٩ جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الرباط - المغرب.

والكـون، تركيـز علـى التوحيـد، جعْـلُ الإنـسان محـور الوجـود وغايـة المخاطبات".[١٢]

سر فاعلية رسائل النور

ربما يرد بالبال سؤال:

صحيح أن رسائل النور تفسير متميز للقرآن الكريم يلائم مفاهيم هذا العصر، ولكن أليس هناك تفاسير قيّمة أخرى لأئمة أعلام ؟ فأين إذن سر فاعلية رسائل النور حتى استطاعت بفضل الله أن تبني في طول البلاد وعرضها مدرسة إيمانية روحية فكرية متكاملة وارفة الظلال مستقيمة المسالك آتت أكلها بإذن الله في كل مكان ..؟

فالجواب: أن سر الفاعلية يكمن فيما يستشعره كلُّ مَن يستمر على قراءة الرسائل، من *التغير والتحوّل في قرارة ذاته ؛ تحوّلٌ في نفسه، في فكره، بل في كيانه كله، حتى ينعكس على حياته.*

وقد مررتُ بهذا التحول بنفسي، كما أفصح لي الكثيرون عما حدث لهم من التحول. و تحريت عن مكمن هذا السر العجيب كثيرا وسألت عنه الكثيرين ومازلت أبحث وأتحرى . وكما لا يخفى ليس سهلا ذكر ما جرى و يجري من حالات التغير الروحي والتحول الفكري والإنقلاب النفسي، إذ لها خصوصيتها لكل فرد، ولكن الميزة المشتركة لدى الجميع :

أن في رسائل النور سراً عجيباً كأنها تصوغ الإنسان صياغة جديدة .

نعم، إن كل قارئ لرسائل النور بإمعان يشعر ويحس في كيانه بهذه الصياغة الجديدة بل يكاد يلمسها لمس اليد في نفسه وفي روحه وفي قلبه، حتى إنه يرى

(١٢) بديع الزمان النورسي: سيمياء الشكل والصميم- المقدمة

بعد مدة من المداومة على القراءة كأنه إنسان جديد؛ عالمُه قد تبدل واتسع، نظرتُه إلى الوجود والى الأحداث والى كل ما حوله قد تجددت، عالمُه الداخلي قد غمره من الإطمئنان والسكينة والانشراح ما يذكّر بسعادة الآخرة قبل بلوغها، وعندئذ لا يتمالك نفسه من البوح بهذه المشاعر والجدة في كيانه إلى كل قريب وصديق. وهذا أمر واقع لا شك فيه. ولكن ربما يجد فيه من لم يقرأ رسائل النور مبالغة وغلواً ومدحاً وثناءً للرسائل أكثر مما تستحق. إلاّ أن الشاهد على أحقية هذا الكلام ألوف بل مئات الألوف ممن قرأوا ودرسوا رسائل النور، وليس فقط التركية منها بل حتى ترجماتها العربية والإنكليزية وغيرها من الترجمات. علماً أن شاهدين عدلين كافيان لإثبات صدق قضية من القضايا. ولما كنت عاجزاً عن بسط هذا الأمر "صياغة رسائل النور للإنسان" أكثر من هذا، سوف لا أذكر إلاّ بضعة عوامل من هذه الصياغة.. أذكرها باختصار شديد

عوامل فاعلية الرسائل في صياغة الإنسان :

إن عوامل هذه الفاعلية كثيرة جداً نذكر منها ستة بإيجاز:

١- سلوك منهج قرآني في تزكية النفس:

وهو طريق العجز، الفقر، الشفقة، التفكر، طريق قصير سليم وسبيل سوي يمكن أن يعايشه القارئ في حياته اليومية معايشة واقعية، مقتصر على أربع خطوات:

الخطوة الأولى:

كما تشير إليها الآية الكريمة ﴿فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ (النجم:٣٢) وهي: عدم تزكية النفس. ذلك لان الإنسان حسب جبلّته، وبمقتضى فطرته، محبٌ لنفسه بالذات، بل لا يحب إلا ذاته في المقدمة. ويضحي بكل شيء من اجل نفسه، ويمدح نفسه مدحاً لا يليق إلا بالمعبود وحده، وينزّه شخصه ويبرئ ساحة نفسه،

بل لا يقبل التقصير لنفسه أصلاً ويدافع عنها دفاعاً قوياً بما يشبه العبادة، حتى كأنه يصرف ما أودعه الله فيه من أجهزة لحمده سبحانه وتقديسه إلى نفسه، فيصيبه وصف الآية الكريمة: ﴿مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ (الفرقان:٤٣) فيعجب بنفسه ويعتد بها.. فلابد إذن من تزكيتها فتزكيتُها في هذه الخطوة وتطهيرها هي بعدم تزكيتها.

الخطوة الثانية:

كما تلقّنه الآية الكريمة من درس: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللّه فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾ (الحشر: ١٩). وذلك: أن الإنسان ينسى نفسه ويغفل عنها، فإذا ما فكر في الموت صرفه إلىغيره، وإذا ما رأى الفناء والزوال دفعه إلى الآخرين، وكأنه لا يعنيه بشيء، إذ مقتضى النفس الأمارة أنها تذكر ذاتها في مقام أخذ الأجرة والحظوظ وتلتزم بها بشدة، بينما تتناسى ذاتها في مقام الخدمة والعمل والتكليف. فتزكيتها وتطهيرها وتربيتها في هذه الخطوة هي: العمل بعكس هذه الحالة، أي عدم النسيان في عين النسيان، أي نسيان النفس في الحظوظ والأجرة، والتفكر فيها عند الخدمات والموت.

والخطوة الثالثة:

هي ما ترشد إليه الآية الكريمة: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّه وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ (النساء:٧٩) وذلك: إن ما تقتضيه النفس دائماً أنها تنسب الخير إلى ذاتها، مما يسوقها هذا إلى الفخر والعجب. فعلى المرء في هذه الخطوة أن لا يرى من نفسه إلاّ القصور والنقص والعجز والفقر، وان يرى كل محاسنه وكمالاته إحساناً من فاطره الجليل، ويتقبلها نعماً منه سبحانه، فيشكر عندئذ بدل الفخر ويحمد بدل المدح والمباهاة. فتزكية النفس في هذه المرتبة هي في سر هذه الآية الكريمة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (الشمس:٩).

وهي أن تعلم بأن كمالها في عدم كمالها، وقدرتَها في عجزها، وغناها في

فقرها، (أي كمال النفس في معرفة عدم كمالها، وقدرتها في عجزها أمام الله ، وغناها في فقرها إليه).

الخطوة الرابعة:

هي ما تعلمه الآية الكريمة: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ (القصص:٨٨). ذلك لان النفس تتوهم نفسها حرة مستقلة بذاتها، لذا تدّعى نوعاً من الربوبية، وتضمر عصيانا حيال معبودها الحق. فبادراك الحقيقة الآتية ينجو الإنسان من ذلك وهي: كل شيء بحد ذاته، وبمعناه الاسمي: زائلٌ، مفقود، حادث، معدوم، إلا انه في معناه الحرفي، وبجهة قيامه بدور المرآة العاكسة لأسماء الصانع الجليل، وباعتبار مهامه ووظائفه: شاهد، مشهود، واجد، موجود.

فتزكيتها في هذه الخطوة هي معرفة: أن عدمها في وجودها ووجودها في عدمها، أي إذا رأت ذاتها وأعطت لوجودها وجوداً، فإنها تغرق في ظلمات عدم يسع الكائنات كلها. يعني إذا غفلت عن موجدها الحقيقي وهو الله، مغترة بوجودها الشخصي فإنها تجد نفسها وحيدة غريقة في ظلمات الفراق والعدم غير المتناهية، كأنها اليراعة في ضيائها الفردي الباهت في ظلمات الليل البهيم. ولكن عندما تترك الأنانية والغرور ترى نفسها حقاً أنها لا شيء بالذات، وإنما هي مرآة تعكس تجليات موجدها الحقيقي. فتظفر بوجود غير متناه وتربح وجود جميع المخلوقات.

نعم، من يجد الله فقد وجد كل شيء، فما الموجودات جميعها إلاّ تجليات أسمائه الحسنى جل جلاله..".(١٣)

(١٣) الكلمات ص ٥٦٠

٢- إزالة ركام الشبهات أمام الفطرة:

لاشك أن المخاطب في الوقت الحاضر غيره بالأمس، إذ شنّت عليه الضلالة هجوما شرساً لتجتث من قلبه جذور الإيمان، وكدّست في عقله ركام الشبهات التي ما أنزل الله بها من سلطان، ووضعت بينه وبين فهم الآيات القرآنية الكريمة والآيات المبثوثة في الآفاق والأنفس، حواجز قاتمة وموانع كثيفة من ظلمات الفكر المادي وتفويض الأمور إلى تأثير الأسباب المادية باسم العلم والثقافة والتقدم، وغرزتها في فكره وذهنه سواء من خلال مناهج دراسية أو عبر قنوات ثقافية وإعلامية المسموعة منها والمرئية. حتى أصبح المخاطب عاجزاً عن اختراق تلك الحواجز وتجاوزها والتخلص منها ليتمكن من التدبر في الآيات الكريمة ويستفيض منها غذاءه الروحي والعقلي.

ولكن بمداومة قراءة الرسائل، والاستفاضة الدائمة منهاوتزكية النفس بها، يزول ما علق على فطرته من الركامات، وتُرفع من أمامها تلك الحواجز والموانع التي وضعتها وسائل الضلالة، حتى تسلَم فطرتُه وتُعافى، وتُفتح بصيرتُه وتنفُذ إلى إدراك الحقائق بإذن الله .

٣- النظرة الحرفية للكائنات والأحداث:

يقول الأستاذ النورسي:

"اعلم! أنى احمد الله على أن فتح لي أعاظم مسائل هذه الكائنات بمسألة من النحو، هي الفرق بين "المعنى الحرفي والإسمى"!.. أي هذه الموجودات كلماتٌ دالات على معانٍ في غيرها، أي مكتوباتٌ ربانية تاليات للأسماء الحسنى، لا إسمية حتى تدل على معنى في نفسها لذاتها".[١٤]

(١٤) المثنوي العربي النوري ص ٣٥٢

ويمكن أن نوضح النظرة الحرفية والنظرة الإسمية وهما " زاوية نظر" المؤمن بالمثال الآتي:

" إنك إذا نظرت إلى المرآة من حيث إنها زجاجة، ترى مادتها الزجاجية، وتكون الصورة المتمثلة فيها شيء ثانوي، بينما إن كان القصد من النظر إلى المرآة رؤية الصورة المتمثلة فيها، فالصورة تتوضح أمامك حتى تدفعك إلى القول ﴿ فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون:١٤) بينما تبقى زجاجة المرآة أمراً ثانوياً.

النظرة الأولى تمثل "المعنى الاسمي" أي: زجاجة المرآة معنى مقصود، وصورة الشخص المتمثلة فيها "معنى حرفي" غير مقصود.

أما النظرة الثانية فصورة الشخص هي المقصودة، فهي إذن معنى "إسمي" أما الزجاج فمعنى "حرفي".

وهكذا ورد في كتب النحو تعريف الاسم أنه: ما دلّ على معنى في نفسه. أما الحرف فهو: ما دلّ على معنى في غيره.

فالنظرة القرآنية إلى الموجودات تجعل الموجودات جميعها حروفاً، أي أنها تعبّر عن معنى في غيرها، بمعنى أنها تعبّر عن تجليات الأسماء الحسنى والصفات الجليلة للخالق العظيم المتجلية على الموجودات.

أما نظرة الفلسفة الميتة فهي تنظر على الأغلب بالنظر الاسمي إلى الموجودات، فتزل قدمها إلى مستنقع الطبيعة". [١٥]

"نعم! إن ذلك الفرقان الحكيم هو الذي يرشد الجن والإنس إلى الآيات الكونية التي سطَّرها قلمُ القدرة الإلهية على صحائف الكون الواسع ودبجها

(١٥) اللمعات ص ١٧٢- الملاحق –ملحق بارلا ص ٩٠

على أوراق الأزمنة والعصور. وهو الذي ينظر إلى الموجودات - التي كل منها حرف ذو مغزى - بالمعنى الحرفي، أي ينظر إليها من حيث دلالتها على الصانع الجليل. فيقول: ما أحسنَ خلقه! ما أجملَ خلقه! ما أعظم دلالته على جمال المبدع الجليل. وهكذا يكشف أمام الأنظار الجمالَ الحقيقي للكائنات.

لذا فإن رسائل النور أيضاً تسوق الأمثلة من الموجودات التي يعايشها القارئ للدلالة على الله سبحانه وتعالى، فتجعل لديه "زاوية نظر" ينظر منها إلى الكائنات والأحداث، وهي زاوية "نظر حرفي" أي من حيث دلالتها على الله سبحانه وتعالى. وذلك بالآتي :

٤- تمزيق أستار الإلفة والعادة:

يقول الأستاذ النورسي:

"لما عجز الإنسان بنظره السطحي أن يتذوق ما في جفان الكائنات وصحونها من غذاء روحي مغطى بغطاء الإلفة، سئم من لعق الجفان ولَحْس الغطاء. ولم يفده سوى عدم القناعة، والتلهف إلى خوارق العادات والرغبة في الخيالات، مما ولّد لديه الرغبة في المبالغة للتجدد أو الترويج..".[١٦]

إلاّ أن الإلفة - التي هي أخت الجهل المركب وأمّ النظر السطحي - هي التي عصبت عيون المبالغين. ولا يفتح تلك العيون المعصوبة إلاّ أمر القرآن الكريم بالتدبر والتأمل في الآفاق والأنفس المألوفتين.

نعم! إن نجوم القرآن الثاقبة هي التي تفتح الأبصار وترفع ظلام الجهل وظلمات النظرة العابرة. إذ تمزق الآيات البينات بيدها البيضاء حجاب الإلفة والنظر السطحي..".[١٧]

---

(١٦) صيقل الإسلام – محاكمات عقلية ص ٦٤

(١٧) صيقل الإسلام – محاكمات عقلية ص ٦٣

ف" القرآن الكريم، ببيناته القوية النافذة، إنما يمزّق غطاء الإلفة وستار العادة الملقى على موجودات الكون قاطبة، والتي لا تُذكر إلاّ أنها عادية مألوفة مع أنها خوارق قدرةٍ بديعة ومعجزاتها العظيمة. فيكشف القرآن بتمزيقه ذلك الغطاء حقائق عجيبة لذوي الشعور، ويُلفت أنظارهم إلى ما فيها من دروس بليغة للاعتبار والعظة، فاتحاً كنزاً لا يفنى للعلوم أمام العقول".(١٨)

ورسائل النور تقتفي أثر القرآن العظيم في تمزيقه لغطاء العادة والمألوف، إذ ما أن يطالع المرء رسائل النور ويداوم على قراءتها حتى يشاهد أن الأستار المانعة لرؤية الحقائق وحُجُبَها الملقاة على الموجودات والأحداث تتمزق أمامه وتتلاشى، فيرى معجزات القدرة الإلهية وخوارق العادات في عين العاديات من الأمور و الأشياء التي أصبحت شفافة تشف عما تحتها ووراءها، فيرى من خلال حجب الأسباب الظاهرية للأحداث والوقائع، الأسبابَ الحقيقية للقدر الإلهي والحكمة الربانية. فلا يضطرب تجاه الحوادث ولا يقلق أمام المصائب والنوائب.

وهكذا بتحرره من النظر السطحي العابر، وبزوال ركام الشبهات والحواجز، وتزكية نفسه ينفتح أمامه باب واسع جداً وهو :

٥- التعامل مع معاني الأسماء الحسنى:

وذلك بعدما بدأ ينظر إلى الموجودات بالمعنى الحرفي حيث تفتقر إلى معنى في ذاتها و يحتاج لمعرفة ماهيتها إلى إسم من الأسماء الحسنى؛ حتى تصبح هذه النظرة لديه مَلَكة. إذ يشعر أنه يزاول تعاملاً ذوقياً وقلبياً وروحياً وفكرياً مع معاني الأسماء الحسنى، لا تعاملا نظريا، بل استكشافياً، فيشاهد أنوار

(١٨) الكلمات ص ١٥٠

تجليات تلك الأسماء فيما حوله من موجودات، وفي الحوادث اليومية، لكثرة ما تضع الرسائل بين يديه من ضرب الأمثال الحياتية الواقعية، فيحيا بتلك المعاني الجميلة بعقله وقلبه وروحه بل بجميع لطائفه وأحاسيسه ومشاعره.

وبهذا تصبح الموجودات والحوادث لقارئ الرسائل مظاهر لتجليات الأسماء الحسنى ومكاتيب ربانية مفتوحة يفهم منها معانيها الحقيقية، حتى لا يبقى مجال للغفلة عن المولى الكريم، بل يكسب بالتأمل فيها مرتبة من الاطمئنان واسعة سعة الكون، وتفتح أمامه عبودية دائمة وواسعة سعة الكون.. وعندها تتحول أنواع العلوم التي يقرؤها من خلال مناهج دراسية وأشكال الثقافة التي يتلقاها عبر قنوات ثقافية وإعلامية المسموعة منها والمرئية إلى أدوات لمعرفة الله ونوافذ تطل على التوحيد. وكلما عاود القراءة، ظهرت له من معاني الأسماء الحسنى أكثر، وأتته حقائقها تترى في تجاربه اليومية وفي معاملاته الحياتية. وكلما انسكبت أنوار من تلك المعرفة الإلهية إلى روح طالب النور ونفذت إلى قلبه انعكست في سلوكياته وتصرفاته، حتى تطفح على محياه.

علاوة على ذلك تنعش الرسائل روحَ القارئ وتغرز في قلبه وترسخ في عقله أصولاً إيمانية وموازين قرآنية، مما يعينه على اجتياز العقبات التي تجابهه وحل المشكلات التي تقابله.

وربما تحدث هذه العوامل؛ من تمزق أستار العادة أمام نظر القارئ وزوال ركام الشبهات عن فطرته واكتسابه موازين قرآنية وتعامله مع معاني الأسماء الحسنى، لدى دراسته رسالة واحدة من رسائل النور.. وربما تحدث باطلاعه على عدد من الرسائل إن أراد المزيد، فيغنم فراسة صادقة وبصيرة نافدة وأنواعاً من السعادة الحقة، والسرور الخالص، والنعمة التي ما بعدها نعمة، واللذة التي لا تفوقها لذة.. في معرفة الله.. في محبة الله.

فهذا النظر إلى الكائنات والأحداث هو نظر قرآني محض حيث لا يقضي على الكائنات بالعدم كما هو لدى بعض الطرق الصوفية ولا يسجنها في سجن النسيان المطلق كما هو لدى البعض الآخر من الطرق ، بل ينقذ الكائنات من الإهمال والعبثية ويجعلها مسخرة في سبيل الله سبحانه، جاعلاً من كل شيء مرآة تعكس أنوار المعرفة الإلهية، فاتحاً في كل شيء نافذة تطل إلى المعرفة الربانية.

٦- الحضور الأخروي:

يقول الأستاذ النورسي:

" إن هذا العصر العجيب الذي أثقل كاهل الإنسان بالحياة الدنيوية بما كثّر عليه من متطلبات الحياة وضيّق عليه مواردَها، وحوّل حاجاته غير الضرورية إلى ضرورية بما ابتلاه من تقليد الناس بعضهم بعضاً ومن التمسك بعادات مستحكمة فيهم، حتى جعل الحياة والمعاش هي الغاية القصوى والمقصد الأعظم للإنسان في كل وقت. هذا العصر العجيب أسدل بهذه الأمور حجاباً دون الحياة الدينية والأخروية والأبدية، أو في الأقل جعلها أمراً ثانوياً أو ثالثياً بالنسبة له..".[(١٩)]

ولما كانت رسائل النور تستقي من فيض القرآن وتستمد من بحره وترجع إليه، وأن رُبع القرآن الكريم آيات حول الآخرة، فما يفتح القارئ رسالة إلاّ ويجد فيها ما يذكّره بالآخرة تصريحاً أو تلميحاً أو إشارة، بأمثلة واقعية من حياته اليومية ، فيغدو "الكون بسر التوحيد، بمثابة مزرعة تهيئ محاصيل وفيرة جداً لعالم الآخرة ومنازلها.. وبمثابة مصنع عظيم يهيئ لوازم لطبقات دار السعادة من

---

(١٩) الملاحق ص ١٤٥

أعمال بشرية غنية بمحاصيلها.. وبمثابة جهاز تصوير سينمائي دائب عظيم يضم مئات الألوف من أجهزة الالتقاط لالتقاط صور من الدنيا وعرضها مناظر سرمدية لأهل عالم البقاء ولأهل الشهود في الجنة".[٢٠]

فضلا عن أنه تعلّم من الرسائل أن الآخرة ليست منتهى الدنيا، بل هي موجودة الآن فتُرسل إليها أعماله وأقواله في كل آن، وصدق الله العظيم: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (سُورَةُ فَاطِرٍ :١٠) وبهذا يتكامل حسّه الأخروي، فتكون الآخرة قريبة إليه كأنه يشاهدها مشاهدة عين وبصيرة ويعايشها معايشة حياتية.

ولقد وفق الله سبحانه الأستاذ الجليل أبوالحسن على الحسني الندوي رحمه الله، في بيان الفرق المميّز بين منهج الأنبياء في الدعوة إلى الآخرة وبين منهج الإصلاحيين في الدعوة إليها، فقال:

"لم تكن دعوة الأنبياء إلى الإيمان بالآخرة، أو الإشادة بها "كضرورة خلقية، أو كحاجة إصلاحية، لا يقوم بغيرها مجتمع فاضل ومدنية صالحة، فضلا عن المجتمع الإسلامي" وهذا وإن كان يستحق التقدير والإعجاب، ولكنه يختلف عن منهج الأنبياء وسيرتهم، ومنهج خلفائهم اختلافاً واضحاً، والفرق بينهما أن الأول – منهج الأنبياء- إيمانٌ ووجدانٌ، وشعورٌ وعاطفةٌ، وعقيدةٌ تملك على الإنسان مشاعرَه وتفكيرَه وتصرفاته، والثاني اعترافٌ وتقريرٌ، وقانونٌ مرسومٌ، وأن الأولين يتكلمون (عن الآخرة) باندفاع والتذاذ، ويدعون إليها بحماسة وقوة، وآخرون يتكلمون عنها بقدر الضرورة الخلقية، والحاجة الاجتماعية، وبدافع من الإصلاح والتنظيم الخلقي، وشتان ما بين الوجدان والعاطفة، وبين الخضوع للمنطق والمصالح الاجتماعية".[٢١]

---

(٢٠) الشعاعات ص ١٥

(٢١) النبوة والأنبياء، أبو الحسن علي الحسني الندوي ص٥٢

وصدق أخونا الدكتور فريد الأنصاري في وصفه طلاب النور: " إن طلاب النور يشعرونك أنك أمام عمّال الآخرة. إن أنداء الجنة تفوح من قلوبهم وهم يمارسون مهامهم". (٢٢)

٧- **الشعور بالعناية الربانية:**

إن كل مؤمن صادق يشعر بلا شك أنه تحت رعاية الله وعنايته الربانية، ولكن شعور قارئ رسائل النور شعور حيّ ملازم له حيث يرى آثار هذه العناية باستمرار وكأنها لا تفارقه، إذ يستشعرها دائماً بأحاسيسه المتيقظة ولطائفه المتنبهة، حتى لكأن العناية الربانية تأخذ بيده وتهديه إلى سواء السبيل.. هكذا تمضي حياة قارئ رسائل النور في يقظة شعورية مع اطمئنان قلبي وراحة نفسية. حتى إذا ما غفل وفتر عن العمل القرآني لسبب من الأسباب بمقتضى بشريته وأخطأ فالعناية الربانية توقظه بـ" لطمة رحمة ورأفة" كما يعبّر عنها الأستاذ النورسي الذي يقول: "إن العاملين المخلصين في هذه الخدمة القرآنية لما يعتريهم الفتور والإهمال في العمل يأتيهم التحذير والتنبيه فيتلقون لطمة ذات رأفة وعطف، وينتبهون من غفلتهم، ويسرعون بجد للخدمة مرة أخرى..". (٢٣)

نخلص مما سبق:

أنه بهذه العوامل التي ذكرناها وبغيرها التي لم نذكرها، وهي عوامل متداخلة وليست متسلسلة، تفعل الرسائل فعلها في تطهير ذهن القارئ وتحريك قلبه وتوجيه عقله وتنبيه روحه فيصبح خادماً حقاً للقرآن، في أخلاقه، في سلوكه، في كلامه، في عمله، في تفكيره، في جميع تصرفاته. ولا نزكّي على الله أحداً.

---

(٢٢) جريدة التجديد المغربية العدد ١٢١
(٢٣) اللمعات ص٦٧

الأسس النظرية لمفهوم الأخلاق

د. جنيد محمد شمشك
جامعة أولوداغ- بورصة/تركيا

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ... أما بعد:

فهذا عرض تناولت فيه بعض الجوانب المتعلقة بقضية الأخلاق وهي قضية تطرق إليها الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله هنا وهناك في عدد من مؤلفاته متناولا إياها من وجهة نظره. وأذكر هذه الجوانب هنا موجزة لسببين:

السبب الأول: أن هذه الجوانب من الصعوبة بمكان أن تحبس أو تحصر داخل إطار مقالة واحدة أو استعراض سريع كهذا، و ذلك لأن الأستاذ النورسي قد تناولها بأبعادها الشاسعة ومن زواياها المختلفة جدا.

والسبب الثاني: أن قضية الأخلاق لها علاقة سواء أكانت مباشرة أو غير مباشرة بكثير من القضايا الإسلامية مما دفع الكثير من العلماء الكبار عبر التاريخ الإسلامي أن ألفوا فيها مؤلفات ضخمة. فتجنبا الإطالة والملل في سرد أفكارهم في هذا المجال. سوف أحاول هنا أن أستعرض قضية الأخلاق تحت العناوين التالية:

١- مقاصد القرآن والأخلاق. ٢- ماهية الإنسان وعلاقتها بالخير والشر. ٣- ماهية الخير والشر. ٤- التخلق بالاخلاق الإلهية وغاية النبوة.

تقديم:

من اللافت للنظر أن الأستاذ سعيد النورسي يُعْنىَ بقضية الأخلاق عناية بالغة في مؤلفاته، فقد دفعه إلى ذلك مع الأسف الشديد تفشي الأخلاق الذميمة في المجتمعات الإسلامية إذ نراه يذكر هذه الظاهرة من بين الموانع التي حالت فيما مضى من الزمان دون انتشار الإسلام بشكل كامل في كل قارات العالم حيث يقول:

"نعم فلقد حالت ثمانية موانع دون استيلاء حقائق الإسلام على الزمان الماضي استيلاءً تاماً وهي:... تفشي روح الاستبداد فينا. وانتشار الأخلاق الذميمة النابعة من مجافاة الشريعة ومخالفتها... ثم إن فوران الحمية الأسلامية والوقوف على النتائج الوخيمة للأخلاق الذميمة كفيلان برفع هذين المانعين بل هما على وشك أن يُرفعا، وسيزولان زوالاً تاماً إن شاء الله".[١]

هذا، وهناك منهج خاص للأستاذ النورسي نراه يسير عليه في مؤلفاته المسماة بـ"رسائل النور" عموما وفي تطرقه إلى قضايا خاصة مثل قضية الشر وقضية الخير خصوصا، وهنا سوف أحاول أن أذكر بعضا من النقاط المهمة لخصائص هذا المنهج للأستاذ النورسي إن شاء الله:

أ- يغلب على جميع مؤلفاته تقريبا طابعُ أسلوب الخطاب الذاتي حيث إنه في كل رسالة يخاطب نفسه بالدرجة الأولى فهو يقول مثلا "فحينما أقول "يا أيها الإنسان" أعني به نفسي" ثم يَعْقُبُهُ بقوله "من عجز عن إصلاح نفسه فهو عن غيرها أعجز".

(١) صيقل الإسلام/محاكمات - ص: ٢٣

ب- ومن خصائص أسلوبه أيضا أنه يستمد أصوله من القرآن الكريم ومن الأحاديث النبوية الشريفة ومن الأقوال الحكيمة المأثورة فليس هو بأسلوب فلسفي ولا يَهْدُفُ إلى تمييز بين الأفراد وإنما يسعى إلى مخاطبة جميع شرائح المجتمع من كل المستويات ومن كل المهن، مما يمكّن الجميع - كلٌّ حسب مستواه- أن يستفيد من مؤلفاته وإن حوت مئاتِ الموضوعات العلمية.

ج- إن الأسلوب المتبع في تصوير حقيقةٍ ما يحتل حيزا كبيرا من الأهمية وذلك لأن "أسلوب الشخص في الإبانة يمثل شخصيته"[٢]. هذا ويقول النورسي أيضا:

"فاذا أمعنت النظر في أسلوب الكلام - الكلام الطبيعي الفطري - ترى المتكلم في مرآة الأسلوب، حتى كأن نَفْسَه في أنفاسه ونَبَـرَاتِهِ، وماهيته في نفثاته، وصنعته ومزاجه ممتزجان في كلامه... فلو تخيلت الأمر هكذا لما عوتبت في مذهب الخياليين. فإن كان في خيالك مرض من الشك في هذا، فزُرْ مستشفى قصيدة "بردة المديح". وانظر كيف كتب الحكيم البوصيري وصفته الطبية باستفراغ الدمع وحمية الندم:

واستفرِغ الدمعَ من عينٍ قد امتلأتْ • من المحارم والزَمْ حِميةَ النَدَم

وإن اشتهيت شرب زلال المعنى من زجاج الحقيقة - أي *الأسلوب* - وترى امتزاجهما فاذهب إلى الخمّار واسأله: ما الكلام البليغ؟ فسيقول لك بدافع من صنعته: الكلام البليغ ما طَبَخَتْهُ مراجلُ العلم وبقي في دِنَانِ الحكمة وصَفَّتْهُ مصفاةُ الفهم، فدار به الساقون الظرفاء، فشربته الأفكار، وتمشّى فيه الأسرار، فاهتزت به الأحاسيس.

---

(٢) صيقل الإسلام/محاكمات – ص: ٩٤

وإن لم يَرُق لك كلام هؤلاء السُّكَارَى، فاستمع الى مهندس الماء، هدهدِ سليمان عليه السلام، في النبأ الذي أتى به من سبأ، كيف وصف الذي علّم القرآنَ وأبدع السمواتِ والارضَ، اذ يقول الهدهد: اني رأيت قوماً لايسجدون لله: ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (النمل: ٢٥) فانظر كيف اختار من بينِ الاوصاف الكمالية ما يشير الى هندسة الهدهد".[٣]

ولأن الأسلوب يحتل ذلك القدر العظيم من الأهمية في تصوير الحقيقة فإننا نرى النورسي يَعْمِد إلى تبني أسلوب نزيه ليباشر به التعبيرَ عن الخير والحق والأخلاق الحميدة وعن حصر العبودية على الذات الإلهية فقط دون أن يصور لنا الرذائل والشر والأفعال الذميمة أي دون أن يصور لنا الباطل، لأن "**تصوير** الباطل تصويرا جيدا -كما يقوله هو- إضلال للأذهان الصافية".[٤]

ومن المفيد أن نذكر هنا جانبا من انتقاداته المهمة التي صَوَّبَهَا على الحضارة الغربية لأهميته وارتباطه الوثيق بالموضوع حيث يرى أن الحضارة الغربية بينما تَذُمُّ اللاأخلاقيةَ والسفاهة والرذيلة في الظاهر تدعو في الوقت نفسه إلى الضلال والرذيلة في أسلوبها الذي تنتهجه في تصوير هذه المفاهيم فالحضارة الحديثة حينما تذم اللاأخلاقية تُصَوِّرُهَا مع الأسف الشديد تصويرا مثيرا يُغْرِي العقلَ والقلبَ والروحَ معا إلى درجة أنه يصعب على العقل أو القلب أو الروح أن يقاوم الاستسلام أمام اللاأخلاقية والخضوعَ للنفس والهوى.[٥] فلهذا السبب لا يلجأ النورسي في رسائل النور كلها إلى تصوير الباطل والشر إلا في الضرورة القصوى، ونراه لا يعدل عن هذا المسلك حتى

---

(٣) صيقل الإسلام/محاكمات – ص: ١٠٠
(٤) المكتوبات، من نوى الحقائق- ص: ٦٠٣
(٥) الكلمات، من اللوامع.

في مؤلفه المسمى بـ" إشارات الإعجاز" الذي ألفه وهو على خط النار أثناء الحرب العالمية الأولى والذي يعد من أوائل سلسلة رسائل النور فقد ورد في مقدمة "إشارات الإعجاز" ما يلي:

"فاكتفى ببيان النكات الدقيقة لتلك الآيات من دون ان يخوض في حقيقة مسلكهم وبيان نقاط ارتكازهم، بل تركها مجملة دون تفصيل، لئلا يعكّر صفو اذهان القراء الكرام. ومن المعلوم ان نهج رسائل النور هو: عدم ترك أثرٍ سيءٍ مهما كان في ذهن القارئ، اذ تجيب اجوبة قاطعة على الشبهات التي يثيرها اعداءُ الاسلام من دون ان تذكر الشبهة نفسها - بخلاف سائر العلماء - فتسد بهذا دخول اية شبهة كانت في ذهن القارئ. فانتهج سعيد القديم في تفسيره هذا مسلك رسائل النور، فأولى اهتمامَه بالجانب البلاغي لتلك الآيات وبيان الفاظها واشاراتها لئلا يكدّر الاذهان ويعكر صفوها".[٦]

د- ومن خصائص أسلوبه أيضا أنه كمبدأ عام يسعى في رسائل النور إلى إقناع النفس وإرغامها على الإقلاع عن اقتراف الشر والمعصية والفسق مبرهنا على عواقبه الوخيمة في الدنيا قبل الآخرة. و نحن نراه يبين لنا في احدى رسائله ذلك المبدأ الإصلاحي الذي سعى دوما إلى تحقيقه في رسائل النور قائلا إنه هناك حالتان رهيبتان في عصرنا هذا ولعلاقتهما المباشرة بموضوعنا أريد أن أنقل هنا واحدة من هاتين الحالتين حيث يقول الأستاذ النورسي:

"إن رسائل النور التي هي تفسير حقيقي للقرآن الكريم، ببيان إعجاز معانيه الجليلة، تبين أن في الضلالة جحيماً معنوياً في هذه الدنيا، كما تُثْبِتُ ان في الايمان نعيماً معنوياً في الدنيا ايضاً. وهي تبرهن أن في المعاصي والفساد والمتع المحرّمة آلاماً معنوية مُبَرِّحَةً، كما أن في الحسنات والخصال الحميدة

(٦) إشارات الإعجاز - ص: ١٩-٢٠

والعمل بالحقائق الشرعية لذائذ معنوية أشبه ما تكون بملذات الجنة. فهي بهذا الاسلوب تنقذ مَن كان له مسكة من عقل من أهل السفاهة وارباب الضلال من التمادي في غيّهم، ذلك لأن في عصرنا هذا حالتين رهيبتين:

اولاها: ان نوازع الانسان واحاسيسه المادية لا ترى العقبى فتفضّل درهماً من لذّةٍ عاجلة على قنطار من لذات آجلة، هذه الاحاسيس قد طغت - في هذا العصر - على عقل الإنسان وسيطرت على فكره؛ لذا فالسبيل الوحيد لإنقاذ السفيه من سَفَهِهِ، هو الكشف عن ألمه في لذته نفسها، ومساعدته على التغلب على احاسيسه تلك؛ اذ المرء في زماننا هذا، مع علمه بلذائذ الآخرة ونعيمها الثمين كالالماس يفضّل عليها مُتعاً دنيوية تافهة اشبه ما تكون بقطع زجاجية قابلة للكسر! كما تشير اليها الآية الكريمة ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ﴾ (ابراهيم: ٣). وبناء على هذا ولشدة حبّه للدنيا تراه ينساق وراء ارباب الضلالة ويتبعهم بعد أن كان من أهل الايمان. والسبيل الوحيد لإنقاذه من خطر الانسياق هذا، هو اظهار آلام جهنم وعذابها في الدنيا ايضاً. وهذا هو النهج الذي تَسِيرُ عليه رسائلُ النور... ان ارباب السفاهة والضلال يذوقون في الدنيا نفسها عذاباً جهنمياً معنوياً، كما ان اهل الصلاح والايمان يعيشون في جنة معنوية في هذه الدنيا. وبامكانهم أن يتذوقوا طعوم لذائذ تلك الجنة المعنوية بحواسهم ولطائفهم الاسلامية والانسانية وبتجليات الايمان وجلواته. بل يمكنهم الاستفادة من تلك اللذات حسب تفاوت درجاتهم الايمانية.

بيد أن طبيعة هذا العصر العاصف الذي تسود فيه التيارات المعطِّلة للمشاعر، والصارفة لأنظار البشرية الى الآفاق الخاوية والغرق فيها، قد اوجدتْ صَعْقَةً من النَّوْع) الذي يعطِّل الاحساس، لذا فان ارباب الضلال لا يشعرون

بعـذابهم المعنـوي مؤقتـاً، وان أهـل الهدايـة بـدورهم قـد دَاهَـمَتْهُمُ الْغفلـةُ فـلا يستطيعون أن يُقَدِّرُوا لذّةَ الايمانِ الحقيقيةِ حقَّ قَدْرِها".(٧)

ذ- ومن خصائص أسلوبه أيضا أنه يتبع طريق القرآن في أنه يخاطب العقل والقلب معا فهو بذلك ينادي كل القابليات والاستعدادات التي أودعها الخالق في طبيعة الإنسان.

"فكتبتُ بعض ما تألق من مسائل التوحيد وبعض ما تظاهر منها اثناء تأملٍ فكـري، وتـجوالٍ قلبـي، وانكـشافٍ روحـي عبـر العـروج فـي مراتـب الـمعرفة الإلـهية.(٨)

ر- وأخيرا يهتم الأستاذ النورسي في رسائل النور اهتماما بالغا بمراعاة التوازن الإلهي في أوامر الدين ومقتضى أسماء الله الحسنى والتعادل الدنيوي والأخروي في كل ما يتطرق إليه من مسائل.

١- مقاصد القرآن و الأخلاق.

هنا سوف أبدأ أولا بمقاصد القرآن. نحن لو ألقينا نظرة على تاريخ التفاسير لرأينا أن العلماء أفادوا باجتهادات وآراء عديدة فيما يخص مقاصد القرآن. وضمن هذه الاجتهادات والآراء نرى الأستاذ النورسي يحصر مقاصد القرآن على التوحيد و النبوة والحشر والعدل والعبادات(٩)، وهي تترابط عنده بعضها مع بعض وتدعم بعضها بعضا(١٠) بحيث إنه لو أصاب خلل ما أي واحد من تلك المقاصد لَتَسَرَّبَ هذا الخللُ إلى الباقي ككل، ويرى الأستاذ النورسي أيضا أن

---

(٧) صيقل الإسلام/الخطبة الشامية - ص: ٤٨٧-٤٨٤.
(٨) اللمعات، اللمعة السابعة عشرة، المقدمة. - ص: ١٧٣
(٩) إشارات الإعجاز - ص: ٢٣
(١٠) الشعاع الحادي عشر - ص: ٢٩٤

أغلبَ الآيات القرآنية تدور حول هذه المقاصد وأن البشرية تتلقى تعاليمها منها وتَبْنِي مسائلَها عليها وتستمد جميع أحكامها منها، وبناء على ذلك فإنه إذا كان ما سوف تستنتجه البشرية من هذه المقاصد من تعاليم وأحكام غير مبني على أسس متينة ومحكمة فإنه سوف يؤدي ذلك بطبيعة الحال إلى أن ما يقاس عليها سوف يكون غير ثابت وغير صالح. فبالتالي يمكن لنا القول بأن مسألة الأخلاق التي هي موضوعنا إنما تثبت دعائمها وتستقر في النفوس والمجتمعات أصولها إذا كانت مُسْتَمَدَّةً من مقاصد القرآن بشكل صحيح. وعلى العكس من ذلك فإنه إذا كان هناك شيء من الخلل في الأسس التي تبنى على تلك المقاصد فإنه من البديهي أن لا يُكْتَبَ لهذه الأسس الثباتُ و الاستقرار في عالم البشرية وأن يكون تأثيرها ونتائجها إن وُجِدَتْ ضعيفة و مؤقتة . فعلى سبيل المثال إذا كان الإيمان باليوم الآخر الذي هو جزء من مقاصد القرآن غير مستقر في الصدور بصورة متينة كما هو المطلوب فإن الأفراد في مجتمع ما أو بلد ما سوف يسقطون بسهولة في مستنقع اللا أخلاقية. يقول الأستاذ النورسي في هذا الصدد:

"...فان كل "مدينة" هي بحد ذاتها بيت واسع لسكنتها. فان لم يكن "الايمان بالآخرة" مسيطراً على أفراد هذه العائلة الكبيرة فسيستولى عليهم الحقدُ والمنافع الشخصية والاحتيال والانانية والتكلف والرياء والرشوة والخداع، بدلاً من أسس الاخلاق الحميدة التي هي الاخلاص والمروءة والفضيلة والمحبة والتضحية ورضى الله والثواب الاخروي. وكانت معاني الارهاب والفوضى والوحشية حاكمةً ومسيطرةً تحت اسم النظام والأمن والانسانية التي يظهرونها، وحينئذ تَتَسَمَّمُ حياةُ تلك المدينة، فيتصف الاطفال بالوَقَاحة والاهمال، والشباب بالسُكر والعربدة، والاقوياء بالظلم والتجاوز، والشيوخ بالبكاء والأنين".[١١]

---

(١١) الشعاع الحادي عشر – ص: ٢٨٣

وينطبق هذا الحكم كقاعدة أساسية على جميع أركان الإيمان الأخرى فلا بد أن تستقر تلك الأركان وتترسخ في النفوس كي يَسْتَتِبَّ الأمنُ والاستقرار في المجتمع وإلا يتوجب نَصْبُ شرطي على كل فرد من أفراد المجتمع وذلك من المستحيلات.

"أجل! إن الإيمان يقيم دائماً في القلب والعقل حارساً معنوياً اميناً، لذا كلما صدرت ميول فاسدة عن تطلعات النفس والنوازع والاحاسيس المادية قال لها ذلك الحارس الرادع: محظور.. ممنوع.. فيطردها ويهزمها. ان افعال الانسان انما تصدر عن تمايلات القلب والمشاعر وهي تنبعث من شدة تحسس الروح وحاجتها، والروح انما تهتز بنور الايمان، فان كان خيراً يفعله الانسان، وإلاّ يحاول الانسحاب، وعندئذٍ لا تغلبه النوازع والاحاسيس الماديةُ التي لا ترى العقبى". [١٢]

٢- ماهية الإنسان وعلاقته بالخير والشر:

ومن المعلوم أن الله سبحانه و تعالى قد أودع في طَبِيعَةِ الإنسان قابلية عظمى للارتقاء أو للتدني. ففي معظم المواضع التي تحدث فيها الأستاذ بديع الزمان عن ماهية الإنسان وقابلياته المادية والمعنوية التي لا يمكن حصرها في الأرقام يبين لنا أن الإنسان بقدرما يملك قابلية عظمى لِيَمِيلَ إلى الخير يملك كذلك قابلية عظمى للميل إلى الشر حيث يقول:

"... إن فيك جهتين:

الاولى: جهةُ الايجاد والوجودِ والخير والايجابية والفعل. **والاخرى**: جهةُ التخريب والعدم والشر والسلبية والانفعال. فعلى اعتبار الجهة الاولى (جهة

---

(١٢) صيقل الإسلام/الخطبة الشامية – ص: ٥٢٣

الايجاد) فانك أقلُّ شأناً من النحلة والعصفور وأضعفُ من الذبابة والعنكبوت. أما على اعتبار الجهة الثانية (جهة التخريب) فباستطاعتك ان تتجاوز الأرضَ والجبال والسموات، وبوسعِكَ ان تُحَمِّلَ على عاتقك ما أشفقن منه فتَكْسِبَ دائرةً أوسعَ ومجالاً أفسح؛ لأنك عندما تقوم بالخير والايجاد فانك تعمل على سعةِ طاقتك وبقدر جهدك وبمدى قوتك، أما اذا قمتَ بالإساءةِ والتخريب، فإن اساءتكَ تتجاوز وتَسْتَشْرِي، وان تخريبَك يعم وينتشر... وخلاصة القول: ان النفس الأمارة بإمكانها اقترافُ جنايةٍ لا نهاية لها في جهة الشر والتخريب، أما في الخير والايجاد فان طاقتها محدودة وجزئية؛ اذ الانسان يستطيع هدمَ بيتٍ في يوم واحد الاّ أنه لا يستطيع أن يشيّده في مائة يوم". [١٣]

هذا ويرى الأستاذ النورسي أنه هناك شروط لا بد من توافرها كي تنقلب القابلية العظمى للشر لدى الإنسان إلى قابلية عظمى للخير حتى يكتسب صاحبُها قيمةَ "أحسن تقويم" و هذه الشروط هي:

١- أما إذا تخلى الانسانُ عن الأنانية ٢- وطلب الخير والوجود من التوفيق الإلهي ٣- وأرجع الأمر إليه، ٤-وابتعد عن الشر والتخريب، ٥-وترك اتباع هوى النفس ٦- فاكتمل عبداً لله تعالى تائباً مستغفراً، ذاكراً له سبحانه. فسيكون مَظهراً للآية الكريمة: ﴿ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ (الفرقان: ٧٠) فتنقلب القابلية العظمى عندَه للشر الى قابلية عظمى للخير. ويكتسب قيمة (أحسن تقويم) فيُحَلِّق عالياً الى أعلى عليين". [١٤]

٣- ماهية الخير والشر:

يقيم الأستاذ النورسي مقارنة بين مصطلحي الخير والشر في ثنايا دراسته

---

(١٣) الكلمة الثالثة والعشرون المبحث الثاني، النكتة الأولى.

(١٤) نفس المصدر.

هذه المسألة ليحاول من خلالها -أي من خلال المقارنة بين مصطلحي الخير والشر- أن يعلل السبب في أنه لماذا تكون يد الإنسان قاصرة إلى هذا الحد عن عمل الخير بينما هي تكون أطول إلى الشر. وعليه فهو يرى أن المصطلحات مثل العدم والشر والكفر والمعصية تختلف باعتبار ماهيتها عن مصطلحات الخير والعمل الصالح والأخلاق الحسنة. لذا:

" *(أ) فإن "في الضلالة والكفر عَدَماً وتركاً، وهو سهْلٌ لا يحتاج الى دفعٍ ولا الى تحريك.*(١٥)"

فمثلا يمكن أن يؤدي إهمالُ واحدٍ من المَلاَّحِينَ الذين يديرون دَفَّةَ السفينة الضخمة الْمُحَـمَّلَة بأحمال ثقيلة وظيفتَه إلى أن تذهب جهود الباقين مع كل الحُمُولة هباء منثورا أي أنه يترتب على تعطيل عمل واحد وإهمال وظيفة واحدة كلُ هذا الشر والدمار.

" *(ب) وفيها "تخريبٌ كذلك*، وهو سهلٌ وهيّن ايضاً، اذ تكفيه حركة قليلة.(١٦)"

ومعلوم أن جُرْمَ أي شيء يتألف من عناصره التي تشكل أساسه وكي يصير هذ الجرم إلى العدم أو كي لا يتألف في الوجود أصلا يكفي أن يغيب شرط واحد فقط من شروط تشكله. فمعنى ذلك أن عملية الانعدام يمكن أن تحدث بسهولة بينما لا تكون عملية الإيجاد أو الإنشاء بهذه السهولة فعملية الإيجاد تكون هي الأصعب لكونها مشروطة بضرورة توافر جميع الشروط. فعلى سبيل المثال يمكن لرجل واحد أن يَنْسِفَ مبنىً خلالَ يومٍ واحدٍ قد أكمل بناءه عشرون بناءً خلال عشرين يوما.

---

(١٥) اللمعات، - ص: ١٢٤

(١٦) نفس المصدر

"*(ج) وفيها تجاوزٌ وتعدٍ*، فعمل قليل ويسير منه يؤدي الى ضرر بالكثيرين فيُوهِمُ الآخرين أنهم على شيء فيستخفّون بهم ويستعلون عليهم بإرهابهم وفرعونيتهم... ومعلومٌ أنَّ مَسَاعِيَ أهل الضلال لكونها من جنس التخريب تُوهِمهم للآخرين في الظاهر أنهم أقوياء مما يَكْبِتُ أهلَ الإيمان والخير ويجعلهم يتوجسون منهم خِيفة فيتوهمون أن أهل الضلال يملكون قوة فائقة هم في الواقع لا يملكونها".(١٧)

"(د) ثم إن في الإنسان حواس مادية وقوى نباتية وحيوانية لا ترى العاقبة ولا تفكر فيها وهي مفتونة بالتذوق الآني والتلذذ الحاضر. فتلذذ هذه القوى، واشباع نَهَمِهَا وانطلاقها من عِقالها وتحررها يجعل اللطائف الانسانية كالعقل والقلب تعْدِل عن وظائفها الاساس التي هي المشاعر الانسانية السامية الساعية للعقبى".(١٨)...

ويتطرق الأستاذ النورسي في موضع آخر إلى النقاط التالية:

"لقد شاهدتُ مراراً بنفسي ان عشرةً في المائة من أهل الفساد يَغلِبون تسعين في المائة من أهل الصلاح. فكنت أحار في هذا الامر، ثم بامعان النظر فيه، فهمت يقيناً ان ذلك التغلب والسيطرة لم يك ناتجاً من قوة ذاتية ولا من قدرة اصيلة يمتلكها أهل الباطل، وانما من طريقتهم الفاسدة، وسفالتهم ودناءتهم، وعملهم التخريبي، واغتنامهم اختلاف أهل الحق والقاء الخلافات والحَزازات فيما بينهم، واستغلال نقاط الضعف عندهم والنفث فيها، واثارة الغرائز الحيوانية والنفسانية والاغراض الشخصية عندهم، واستخدامهم الاستعدادات المضرّة التي هي كالمعادن الفاسدة الكامنة في سبيكة فطرة

---

(١٧) نفس المصدر.
(١٨) نفس المصدر.

الانسان، والتربيت على فرعونية النفس باسم الشهرة والرتبة والنفوذ.. وخوف الناس من تخرياتهم الظالمة المدمّرة... وامثال هذه الدسائس الشيطانية يتغلبون بها على أهل الحق تغلباً مؤقتاً...".[١٩]

وعلى الرغم من أن عمل الخير و الصالحات من الأمور اليسيرة في حد ذاته إلا أنه يكون أصعب إذا قارناه بسهولة أعمال الشر، يعلل الأستاذ النورسي سبب ذلك معتمدا على بعض الأسس حيث يرى أن:

"(أ) عمل الخير و الصالحات – بأكثريتها المطلقة – تستند الى الوجود وتعود اليه، فأساسها ايجابي ووجودي، أي ذو اصالة وفاعلية.[٢٠] فمثلا من الضروري أن يستعد المرء و يتوضأ ليقيم الصلاة وعليه أن يراعي أيضا جميع أركان الوضوء والصلاة بينما لا يلزمه أي شيء لترك إقامة الصلاة وذلك لأن تركها تصرف عدمي لا يحتاج إلى القيام بأية محاولة.

"(ب) "*وأن عمل الخير والصالحات إصلاحي*"[٢١] حيث إن جميع الخيرات والأعمال الصالحة والأخلاق الحسنة هي نوع من المساعي التي تسعى إلى إصلاح ما يحدثه شياطين الإنس والجن من الإفساد في الأخلاق والآداب وفي الأفراد والمجتمعات وفي جميع مجالات الحياة سواء أكان هذ الإصلاح كليا أو جزئيا وهو بالطبع سوف يكون أصعب من الإفساد.

(ج) ويعتمد الشر والعصيان للخالق باعتبار حقيقتهما على ترك الأفعال الإيجابية في حين أن الإيمان والعمل الصالح والتخلق بخلق رسول الله صلى الله

---

(١٩) اللمعات، - ص: ١٣١
(٢٠) اللمعات، - ص: ١١٣
(٢١) اللمعات، - ص: ١٢٤

عليه وسلم هي عبارة في حد ذاتها عن الحركة والتفاعل والمحاولة وبذل الجهود والإبداع.[٢٢]

(ح) *وأن عمل الخير استقامة على الحدود*:[٢٣] حيث إن العمل حسبما يأمر به الشرع وحسبما يرسم حدودَه موازينُ السنة المطهرة مع اتباع الأخلاق الحسنة بعيدا عن الإفراط و التفريط يَحْمِي فاعلَه من التورط في الحياة المادية والمعنوية. فهو بامتثاله واتباعه للشريعة والسنة النبوية المطهرة يخلِّصُ نفسه من التردد في تحديد ما هو صالح له وما هو حق عندما يجد نفسه يواجهها الكثير من الأحداث.

(د) *وأن عمل الخير مؤسس على التفكير في العاقبة*:[٢٤] ترى الفلسفات المادية والاتجاهات الدنيوية هذا العالم وهذه الحياة الدنيا أنهما عبارتان فقط عن مجرد مستقر ثابت وأبدي فبالتالي لا تفكر هذه الفلسفات والاتجاهات فيما بعد الموت والدار الآخرة التي هي العاقبة الحقة في حين يرى الأستاذ النورسي أن النظرة الدينية لهذه الحياة وهذا الوجود على عكس ما تصورها اتجاهات الشر تلك قد بنيت على الأسس المقدسة كالسعي بادئ ذي بدء إلى دفع الشر وجلب المنافع أي السعي إلى عمل الخير والصالحات والطاعة لأوامر الشرع والتفكير في العاقبة الحقة أي في الدار الآخرة وفي يوم الحساب والميزان. وعليه فإن حقيقة الإيمان والتقوى والعمل الصالح لا يصح أن تؤسس على أحاسيس الإنسان الحيوانية والنباتية التي تعجز عن التنبؤ بالعاقبة والتي ابتليت بالتكالب الفوري على إشباع غرائزها والانغماس في ملذاتها بل لا بد أن تنحدر تلك

---

(٢٢) اللمعات، - ص: ١١١
(٢٣) اللمعات- ص: ١٢٤
(٢٤) نفس المصدر.

الحقائق من سلطنة اللطائف المعنوية التي تنفذ إلى الحياة الأخروية وعواقبها على عالم الأبدان دون أن تتقيد بالأزمنة كالعقل والقلب والروح أي أن الحياة الدينية تعتمد على تربية النفس وتزكيتها وتصفيتها لا على أن تطلق النفس جماحها في التلذذ بما تشتهي كيفما تشاء.

(ر) وأن العبودية هي التي تَعْجِن خميرة أعمال الخير والصالحات والأخلاق الحميدة: وذلك لأن سلطنة الربوبية تستوجب العبودية و الطاعة إلا أن هناك نوعا من المشقة ولو يسيرا يواجه العبد في أداء العبادات والتكاليف الدينية كالمشقة في إداء الصلوات وفي الصبر على تحمل المصائب.[٢٥] وهذه المشقات والصعوبات هي مما يصعب على النفس تحملها لكونها قد جُبِلَتْ على الكسل لذا يكون للعبادة وقوعها البغيض على النفس.

(ز) وأن محاولة كسر فرعونية النفس الأمارة بالسوء والحد من انطلاقتها المطلقة هي أهم أساس في الدين: فلضمان استمرارية الحياة الروحية والأخلاقية من المهم أن يكبح جماح النفس[٢٦] حسبما يقتضيه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يقول: "أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك". وهنا يرى الأستاذ النورسي أن النفس الأمارة بالسوء سوف تتربص بنا الدوائر في هذه المرحلة للتغلغل في أعماقنا عن طريق أضعف العروق فينا فبالتالي سوف تحاول أن تَضْرَع من أَسَرَهُ الطمعُ في المناصب أو الشهرة أو الأنانية أو التعصب للعرق أو حب الكسل أو الخوف أو الرفاهية. ومعنى ذلك أن مكافحة فرعونية النفس هي نوع من أنواع الجهاد الذي سوف يستمر أبد الدهر في جميع مجالات الحياة.

---

(٢٥) اللمعات، - ص: ١٢٢

(٢٦) اللمعات، - ص: ١٢٤.

٤- التخلق بالأخلاق الإلهية وغاية النبوة

يرى النورسي أن التخلق بأخلاق الله من الأهداف الأساسية التي تسعى النبوة إلى تحقيقها كما يرى أن الغاية من خلق الإنسان هي أن يصطبغ بصبغة هذا المفهوم من الأخلاق. وهذه المسألة لقيت اهتماما كبيرا في رسائل النور كما لقيت من قبلُ على أيدي العلماء مثل الغزالي(٢٧). يقول الأستاذ النورسي في ''رسالة أنا'':

"من القواعد المقررة للنبوة في حياة الانسان الشخصية، التخلق باخلاق الله. أي كونوا عباد الله المخلصين، متحلين باخلاق الله محتمين بحماه معترفين في قرارة انفسكم بعجزكم وفقركم وقصوركم..." .(٢٨)

يصف النورسي هذا التخلق بأنه اتصاف الإنسان بالأخلاق الإلهية مع اعترافه أمام أسماء الله الحسنى بعجزه و ضعفه على أساس أنه بمثابة مرآة تعكِس هذه الأسماء. معنى ذلك أن هناك علاقة مباشرة بين التخلق بالأخلاق الإلهية وبين طريقة تلقي غاية الحياة وتلقي ماهية الأنا في الإنسان. إن مبدأ التخلق بالأخلاق الإلهية أو قل إن شئت بما تقتضيه أسماء الله الحسنى هو واحد من النتائج المبادئية للنبوة في الحياة الشخصية كما يرى ذلك الأستاذ النورسي. هذا ومن الناحية الأخرى يمكن تفسير مبدأ التخلق بالأخلاق الإلهية لدى سلسلة النبوة بطريقتين:

الطريقة الأولى:

يتم التخلق بالأخلاق الإلهية عن طريق معرفة الإنسان ربه، فإذن إذا كان المقصود بالأخلاق الإلهية كما أشار إلى ذلك الغزالي هو أسماء الله الحسنى أي

---

(٢٧) المقصد الاسنى في شرح اسماء الله الحسنى، الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ص. ٣٨-٢٦.
(٢٨) الكلمات، الكلمة الثلاثون المقصد الاول.

أوصاف الذات الإلهية فما معنى التخلق بالأوصاف الإلهية؟ يقصد بذلك أن يتعرف الإنسان على هذه الأسماء والصفات ولا تتأتى معرفة أسماء الله الحسنى ولا يبلغ الإنسان المعرفة الإلهية إلا عن طريق الأنا لديه حيث يعرّف الأستاذ النورسي وظيفة الأنا بأنها:

القيام بطاعة مولاه، طاعةً واعية كاملة، لكونها ميزاناً لمعرفة صفات خالقه، ومقياساً للتعرف على ما يتجلى من شؤونه سبحانه. ويوضح النورسي ما تقوم به الأنا في هذا الصدد على النحو التالي:

"إن (الإنسان) مرآةٌ عاكسة لتجليات الأسماء الإلهية الحسنى، وهو مرآة لها ثلاثة أوجه:

الوجه الاول: كما أن الظلام سبب لرؤية النور، أي أن ظلام الليل وشدّته يبين النور ويظهره بشكل أكثر وضوحاً.. فالأنسان ايضاً يُعرِّف بضَعفه وعَجزه وبفقره وحاجاته، وبنقصه وقصوره، قدرةَ القدير ذي الجلال، وقوتَهُ العظيمة، وغناه المطلق، ورحمته الواسعة. فيكون الانسان بهذا كأنه مرآة عاكسة لكثير من تجليات الصفات الإلهية الجليلة...

أما الوجه الثاني: فهو أن الانسان مرآة لتجليات الأسماء الحسنى، اذ ان ما وهِبَ من نماذج جزئية من (العلم، والقدرة، والبصر، والسمع، والتملك، والحاكمية) وأمثالها من الصفات الجزئية، يصبح مرآة عاكسة يُعرَف منها الصفات المطلقة لله سبحانه وتعالى، وادراك علمه وقدرته وبصره وسمعه وحاكميته وربوبيته، فيفهم تلك الصفات المطلقة للربوبية بالنسبة لمحدوديتها عنده...

الوجه الثالث: لكون الانسان مرآة عاكسة للأسماء الحسنى، فهو ايضاً مرآة عاكسة لها من حيث نقوشها الظاهرة عليه... (ان (الماهية) الجامعة للأنسان، فيها

أكثر من سبعين نقشاً ظاهراً من نقوش الأسماء الإلهية الحسنى، فمثلاً: يبين الأنسان من كونه مخلوقاً، اسمَ الصانع (الخالق) ويُظهر من حسن تقويمه اسمَ (الرحمن الرحيم) ويدلّ من كيفية تربيته ورعايته على اسم (الكريم) واسم (اللطيف). وهكذا يُبرز الانسان نقوشاً متنوعة ومختلفة للأسماء الحسنى المتنوعة بجميع أعضائه وأجهزته، وجوارحه وبجميع لطائفه ومعنوياته، وبجميع حواسه ومشاعره. أي كما أن في الأسماء الحسنى أسماً أعظم لله تعالى، فهناك نقش أعظم في نقوش تلك الأسماء وذلك هو الإنسان..."[٢٩]

الطريقة الثانية:

أما المعنى الثاني للتخلق بالأخلاق الإلهية فهو التحلي بأخلاق القرآن ويتحقق ذلك بالقوى الثلاث التي تتمتع بها الأنا أو النفس الإنسانية وهذه القوى الثلاث هي القوة العقلية والقوة الغضبية والقوة الشهوية. ومعلوم أن الفطرة لم تضع حدا لهذه القوى الثلاث التي أودعت في الإنسان وإنما يضع لها الحد الشريعة والسنة فقط مما ينتج عن ذلك حدوث بعض التجاوزات والظلم في المعاملات ويمكن تلخيص كيفية تخلق هذه القوى الثلاث بخلق القرآن على النحو التالي:

أ- حل لغز الكائنات والإنسان واكتشاف ما يتجلى من حقائق صفتي العليم والحكيم من خلال الحكم القرآنية التي تنبلج من مرتبة الوسط للقوة العقلية.

ب- ومراعاة حقوق الله وحقوق العباد من خلال الشجاعة القدسية التي تتولد من مرتبة الوسط للقوة الغضبية.

ج- والتأدب بأدب القرآن والأدب النبوي الشريف في مجال الآداب والأدبيات من خلال العفة التي تتولد من مرتبة الوسط للقوة الشهوانية.[٣٠]

---

(٢٩) الكلمات، النافذة الحادية والثلاثون، الكلمة الثالثة والثلاثون.
(٣٠) إشارات الإعجاز - ص: - ٣٢-٣٣

وهنا يحسن بنا أن نتطرق إلى علاقة الأخلاق بالأسماء الإلهية والسنة النبوية الشريفة فمن المعلوم أن أكبر خاصة تختص بها رسائل النور قراءتها للكائنات والأشياء على ضوء أسماء الله الحسنى واستخلاصها جميع أحكامها من هذه الأسماء المقدسة حينما تَدْرُس معرفةَ الله في عوالم الأنفس والآفاق. فمثلا بينما تربط رسائل النور النظافة الإلهية والتنظيف الماديين والمعنويين التي تستمر دَوْمًا في كل لحظة في هذا الكون باسم الله القدوس تفسر الحياة الجارية في المليارات من الأحياء بأن تَرْبِطَها باسم الله الحي وهلم جرا.

ونرى النورسي يتبنى الطريقة نفسها في توضيح أحكام الشريعة و المسائل الدينية وأركان الإيمان مثل الحشر وحقيقة الملائكة إلخ بالإضافة إلى الأحكام الظاهرة كالعبادات والمعاملات ويمكننا أن نستشهد كأبرز مثال على ذلك الكلمة العاشرة. فبناء على ذلك يمكننا القول بأنه ليس هناك أية مسألة في رسائل النور إلا وقد ربطت بطريقة أو بأخرى بأسماء الله الحسنى إذ يقول الأستاذ النورسي في هذا الصدد:

"إن في كل شئ وجوهاً كثيرة جداً متوجهة - كالنوافذ - الى الله سبحانه وتعالى، بمضمون الآية الكريمة ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ (الإسْرَاءِ: ٤٤) إذ إن حقائق الموجودات وحقيقة الكائنات تستند الى الاسماء الإلهية الحسنى، فحقيقة كل شئ تستند الى اسم من الاسماء او الى كثير من الاسماء... ان حقيقة جميع العلوم وحقيقة الكمالات البشرية وطبقات الكمّل من البشر، تستند كلها الى الاسماء الإلهية الحسنى، حتى قال اولياء محققون ان: (الحقائق الحقيقية للاشياء، انما هي الاسماء الإلهية الحسنى، أما ماهية الاشياء فهي ظلال تلك الحقائق) ".[٣١]

---

(٣١) الكلمات، الكلمة الثانية والثلاثون، الموقف الثالث، المبحث الاول.

و هنا تساؤل يطرح نفسه: كيف يمكن ربط علاقة بين الأخلاق الحميدة وأسماء الله الحسنى؟ يجيب الأستاذ النورسي عن هذا التساؤل مستأنفا من زاوية الأسماء الحسنى فيطرح السؤال التالي أولا:

"**سؤال**: كيف نتأدب مع علام الغيوب، البصير العليم، الذي لا يخفى عليه شيء، حيث ان هناك حالات تدعو الانسان الى الخجل، ولا يمكن اخفاؤها عنه سبحانه، ولا التستر منه، بينما ستر مثل هذه الحالات المستكرهة احد انواع الأدب؟.

الجواب: اولا: كما ان الصانع ذا الجلال يظهر صنعته اظهاراً جميلاً في نظر مخلوقاته، ويأخذ الامور المستكرهة تحت أستار وحجب، ويزين نِعَمه ويجملها حتى لتشتاقها الابصار. كذلك يطلب سبحانه من مخلوقاته وعباده ان يظهروا امام ذوي الشعور بأجمل صورهم واكثرها حسناً؛ اذ ان ظهورهم للمخلوقات في حالات مُزْرِيَةٍ قبيحة، واوضاع مستهجنة، يكون منافياً للأدب الجميل ونوعاً من العصيان تجاه قدسية اسمائه أمثال: الجميل، المزين، اللطيف، الحكيم. وهكذا فالادب الذي في السنة النبوية الطاهرة انما هو تأدب بالادب المحض الذي هو ضمن الاسماء الحسنى للصانع الجليل.

ثانياً: ان الطبيب له ان ينظر الى أشد الاماكن حرمة لمن يحرم عليه، من زاوية نظر الطب والعلاج. بل يكشف له – في حالات الضرورة – تلك الاماكن ولا يعد ذلك خلافاً للأدب، وانما يعتبر ذلك من مقتضيات الطب. الا ان ذلك الطبيب نفسه لا يجوز له ان ينظر الى تلك الاماكن المحرمة من حيث كونه رجلا او واعظاً او عالماً، فلا يسمح الادب قطعاً باظهارها له بتلك العناوين والصفات. بل يعد ذلك انعداماً للحياء. (ولله المثل الاعلى) فان للصانع الجليل اسماء حسنى كثيرة، ولكل اسم تجليه، فمثلا: كما يقتضي اسم (الغفار) وجود الذنوب، واسم (الستار) وجود التقصيرات، فان اسم (الجميل) لا يرضى برؤية

القبح. وان الاسماء الجمالية والكمالية، امثال: اللطيف، الكريم، الحكيم، الرحيم، تقتضى ان تكون الموجودات في احسن الصور، وفي افضل الاوضاع الممكنة. فتلك الاسماء الجمالية والكمالية تقتضى اظهار جمالها؛ بالاوضاع الجميلة للموجودات وتأدبها بالاداب الحسنة، امام انظار الملائكة والعالم الروحاني والجن والانس. وهكذا فالاداب التي تتضمنها السنة المطهرة اشارة الى هذه الاداب السامية، ولَفْتَةٌ الى دساتيرها ونماذجها.(٣٢)

وهنا إذا أمعنا النظر في أحكام الشرع وأوامره ندرك أنها إلى حد ما تعني في الحقيقة حدود ما تقتضيه أسماء الله الحسنى في عالم أفعال البشر معنى ذلك أن الأفعال المنافية للآداب والأخلاق هي في حكم الاعتداء مباشرة على حرمة حدود الأسماء الحسنى المعنية بتلك الأعمال وعدم توقيرها. فمن هذا المنطلق حينما تدرس أفعال الإنسان الجزئية وأعماله الخلقية على ضوء الأسماء الإلهية يدرك أنها تخرج عن دائرة الجزئية و تكتسب صفة الكلية ويدرك كذلك بشكل أوضح كيف أنها تؤدي إلى سعادة الإنسان الأبدية أو هلاكه.

"إن إنجاز الأعمال وفق السنة الشريفة يجعل العمل الفاني القصير مداراً للحياة الابدية، ذات ثمار خالدة. لذا فانْصِتي جيداً الى قوله تعالى: ﴿ فَآمِنُوا بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيّ الأُمِّيّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٨) واسْعِي ان تكوني مظهراً جامعاً شاملاً لفيض تجلٍ لكل اسم من تجليات الاسماء الحسنى المنتشرة في احكام السنة الشريفة والشرع.(٣٣)

الخلاصة:

حاولت أن أعطي فكرة في هذه العُجَالَةِ عن بعض مبادئ الأستاذ النورسي المتعلقة بنظرته إلى الأخلاق. وفي نظري أنه من الضروري قراءة الرسائل بإمعان

---

(٣٢) اللمعات، - ص: ٨٧-٨٨

(٣٣) الكلمة الرابعة والعشرون، الغصن الخامس، الثمرة الثالثة.

من أولها إلى آخرها مرات عديدة وأنه من الضروري كذلك بذل جهود منتظمة وجبارة أكثر لِتَرَى أعمالٌ أوسع وأشمل النورَ في هذا المجال. والحق أنه يمكن القول بأن هذه المسألة لها علاقة مباشرة بحكمة خلق الأنا وبماهية الإنسان ووظيفته نظرا لأن حكمة خلق الإنسان تكمن في العبودية لله عز وجل. والعبودية لا تتحقق إلا بأن تَعِيَ الأنا المركبة في ماهية الإنسان وظيفتها إزاء خالقها أي بأن تدرك أن وظيفتها هي الخدمة الواعية لأسمائه وصفاته و أن تذعن لها وأن تعمل بمقتضاها. والخدمة الواعية سوف تتحقق على يد الإنسان الذي هو مرآة تعكس أفعال الله وأسماءه وصفاته معا إذا تخلق بمقتضى هذه الأفعال والأسماء والصفات تخلقا واعيا. وبناء على ذلك فإن الأخلاق ليست عبارة عن الفضائل المتمثلة في الأعمال المعنوية والمادية فقط بل هي شعور إيماني يَتَمَحْوَرُ في قلب عبودية الإنسان لله ورَدَّةُ فِعْلٍ للأعمال التي تعبر عن التمسك الواعي بمقتضى هذه الأسماء والصفات.

غاية الإنسان في الكون
من منظور رسائل النور

ذ. علي قاطي ئوز
مانيسا- تركيا

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي قال في كتابه العزيز: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (سُورَةُ القَلَمِ : ٤)

وصلى الله على النبي الكريم المبعوث رحمة للعالمين، والذي أرسله الله ليتمم مكارم الأخلاق، وعلى أصحابه الكرام الذين انتهجوا طريقه القويم، فخلفوه في ترسيخ هذا الدين والدفاع عنه وتقويم خلق الأنام.

أما بعد:

فإن مسألة الأخلاق تعتبر من بين أهم المسائل في الدين الإسلامي، وهي أيضا من أهم المرتكزات التي يتكئ عليها هذا الدين، بل وهي التي بعث من أجلها النبي الكريم، كما قال ﷺ في الحديث الشريف :"إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"[(١)]

---

(١) رواه مالك في الموطأ بلاغة عن النبي ﷺ وقال ابن عبد البر: متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره منها ما رواه أحمد والخرائطي في أول المكارم بسند صحيح عن أبي هريرة مرفوعا

فرسول الله ﷺ جاء ليرسي الأخلاق في أمة بثت الجاهلية في أعماقها عادات وتقاليد خبيثة لا يقبلها العقل ولا يرتاح لها الضمير الحي، فمن وأد البنات إلى القتل بغير حق إلى هدر حقوق المرأة والحروب لأدنى سبب واحتقار الفقراء إلى الاستعباد على غير وجه حق وهلم جرا.

فلما بعث النبي عليه الصلاة والسلام، كان همه الأول أن يربي الرعيل الأول على حسن الخلق ورقة التعامل، وكيف لا وقد كان خلقه القران، كما أخبرت بذلك أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن خلقه، فقالت للسائلين:" أما تقرأون القران ؟ كان خلقه القران"[(٢)] فكان قرانا حيا يمشي على الأرض وقد وفقه الله عز وجل لذلك، فأصبحت بفضله تلك الأشخاص الجاهلة عالمة، وصارت النفوس الضالة مرشدة، وغدت تلك القبائل الهائمة على وجهها المتفرقة في تخوم الصحراء بفضل سماع آية كريمة منه متحدة الكلمة، لا تقطع أمرا إلا بالمشورة والتذاكر، حتى تغيرت سلوكيات العديد بفضل أخذ حديث عنه، فصارت الأمة معلمة للبشرية بفضل النور الذي بعث من أجله، والهدى الذي أرسل ليدل له، ترى فما الحكمة في ذلك؟

يعبر النورسي عن ذلك: "بأن الصحبة النبوية إكسير عظيم، لها من التأثير الخارق ما يجعل الذين يتشرفون بها لدقيقة واحدة، ينالون من أنوار الحقيقة ما لا يناله من يصرف سنين من عمره في السير والسلوك، ذلك لان في الصحبة النبوية انصباغا بصبغة الحقيقة، وانعكاسا لأنوارها، إذ يستطيع المرء بانعكاس ذلك النور الأعظم أن يرقى إلى مراتب سامية، ودرجات رفيعة، وان يحظى

بلفظ إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق... وباختصار عن كشف الخفاء للعجلوني الجزء الأول ص ٢١١

(٢) جزء من حديث عائشة رضي الله عنها أخرجه مسلم ٧٤٦ واحمد ج ٦ ص ١٦٣،٩١،٥٤، وأبو داود ١٣٤٢ والنسائي ج ٣ ص ١٩٩-٢٠٠ والدارمي.

بالتبعية والانتساب بأرفع المقامات، مثله في هذا مثل خادم السلطان الذي يستطيع أن يصل إلى مواقع رفيعة لا يقدر على بلوغها قواد السلطان وأمراؤه. ومن هذا السر نرى أنه لا يستطيع أن يرقى أعظم ولي من أولياء الله الصالحين إلى مرتبة صحابي كريم للرسول الأعظم ﷺ، بل حتى لو تشرف أولياء صالحون مرارا بصحبة النبي ﷺ في الصحوة كجلال الدين السيوطي -مثلا- وأُكرموا بلقائه يقظة في هذا العالم، فلا يبلغون أيضا درجة الصحابة، لان درجة الصحابة الكرام للنبي ﷺ كانت بنور النبوة، إذ كانوا يصحبونه في حالة كونه نبيا رسولا، أما الأولياء الصالحون فإن رؤيتهم له ﷺ إنما هي بعد وفاته أي بعد انقطاع الوحي، فهي صحبة بنور الولاية أي أن تمثل الرسول ﷺ وظهوره لنظرهم، إنما هو من حيث الولاية الاحمدية وليس باعتبار النبوة.

وبعد أن تبين لنا أن مرتبة الصحابة عالية هكذا وأن المدرسة التي اخذوا فيها الدرس لا يمكن محاذاتها، يرى النورسي أيضا أن الأمر ما دام هكذا فلابد أن تتفاوت الصحبتان بمقدار سمو درجة الولاية. وقد يسأل السائل فما للصحبة النبوية من تأثير خارق ونور عظيم ؟ يجيب النورسي عن هذا بعرض ما يلي:

"بينما أعرابي غليظ القلب يئد بنته بيده، إذا به يكسب خلال حضوره مجلس الرسول ﷺ، ومن صحبته ساعة من الزمان، رقة قلب وسعة صدر وشفافية روح، ما يجعله يتحاشى قتل نملة صغيرة، أو آخر يجهل شرائع الحضارة وعلومها، يحضر مجلس الرسول الكريم ﷺ فيصبح معلما لأرقى الأمم المتحضرة كالهند والصين ويحكم بينهم بالقسطاس المستقيم ويغدو لهم مثلا أعلى وقدوة طيبة".[٣]

---

(٣) انظر الكلمة السابعة والعشرين ذيل رسالة الاجتهاد ص٥٧٤

فمسألة الأخلاق إذن كانت هي القضية الأساسية التي بعث من أجلها النبي الكريم ﷺ، وكذا هي المتحكم الرئيسي في هذا الدين، يقول تعالى مشيرا لأخلاق الرسول الكريم : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو الله وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ الله كَثِيرًا﴾ (سُورَةُ الأَحْزَابِ : ٢١)

ويقول الشاعر:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وقد عرف عصر المحنة هذا المجدد الديني الذي طالما دافع عن مسألة الأخلاق، بل جعل منها قضية جوهرية في كل ما أثر عنه، وربى طلبته والمرافقين له على التحلي بصفة الأخلاق القرآنية، بل أثر حتى على الواقفين له بالمرصاد عبر نهجه سلوكا أخلاقيا رفيعا، وهو الأستاذ مجدد الألفية الأخيرة بديع الزمان سعيد النورسي الذي ولد في مطلع القرن العشرين في جنوب شرقي تركيا، وحمل على عاتقه همّ الأمة التركية في زمن تعرضت فيه لمحاولة وأد الدين وإلى أعتى موجة مست الأخلاق والقيم الإنسانية، فثابر وضحى بكل ما يملك، وصرف كل همه للدفاع عن هذه القضية المهمة في الدين، لا يثنيه في ذلك شيء، فسار يكتب ويلقي الدروس ويعظ ويخاطب الناس من أجل النهوض لمقاومة العدو الأول وهو الإلحاد، والتصدي له بكل الوسائل ومحاربة الفساد الأخلاقي، بل سبق ذلك مناداته -قبل ظهور تيار الإلحاد- لتأسيس مدرسة الزهراء- أخت جامع الأزهر- من أجل النهوض بالتعليم ودمج العلوم النقلية بالعقلية، حتى لا يصاب أهل الشريعة بالتعصب وأهل العلوم الحديثة بالتدني الخلقي نتيجة البعد عن الله. كما يرى الأستاذ النورسي مزج العلوم الكونية الحديثة ودرجها مع العلوم الدينية، مع جعل اللغة العربية واجبة والتركية لازمة و الكردية جائزة . وفي جوابه عن الحكمة في هذا المزج وسبب دعائه إليه

دائما يقول: " لتخليص المحاكمة الذهنية -العقلية -من ظلمات السفسطة." ولمزيد من الإيضاح يفصل قائلا: " إن ضياء القلب هو العلوم الدينية، ونور العقل هو العلوم الحديثة، فبامتزاجهما تتجلى الحقيقة، فتتربى همة الطالب، وتعلو بكلا الجناحين، وبافتراقهما يتولد التعصب في الأولى والحيل والشبهات في الثانية"(٤)، فكانت مناداته هذه حسا قبل الوقوع.

وترتكز المنظومة الأخلاقية عند النورسي على قراءة الكون ونظريته الأخلاقية تستمد أصولها من القران المقروء إلى القران المنظور. وحيث إن المدنية الغربية بنيت على أساس الأخلاق الذميمة لذلك فإنها لا تكفل سعادة البشرية.

إن النورسي لا يعرف الأخلاق كمفهوم، وإنما يعالج المنظومة الأخلاقية من خلال الكون- باعتباره تلميذا للقران- بطريقة قرآنية، خلافا للفلاسفة الذين درسوها من منظور ضيق وجزئي جاف، تلتبس بها الأنانية وحب النفس، والذين يجعلون من العقل وحدة دلالية على الحقائق، أما اختلافه مع المتكلمين فيتجلى في رؤيتهم للمسالة من زوايا بعيدة تختلف معالجتهم للحقيقة وكذا الطرح والمواجهة والتحليل الذي غالبا ما يكون مجانبا للصواب أو يحادي الحقيقة، في حين يرى الأستاذ مسألة الأخلاق من منظور قراني. ويستقي أدلته من القران الكريم ويحيل إلى الكون فيقول: "فطريق القران لا يوازيه طريق في الاستقامة والشمول فهو اقصر طريق وأوضحه وأقربه إلى الله واشمله لبني الإنسان ونحن قد اخترنا هذا الطريق"(٥) انه يربطها بالكون ربطا تاما، انه بمجرد النظر إلى الآيات المبثوثة في الكون، حتما يتم الربط بينها وبين أسمائه تعالى، كما يقول النورسي:

---

(٤) انظر صيقل الإسلام -المناظرات-ص ٤٢٨

(٥) صيقل الإسلام -المحاكمات-ص ١٢٢

"إن ما يعرف لنا ربنا هو ثلاثة معرفين أدلاء عظام، أوله كتاب الكون". ويفصل بوضوح في هذا المعرف في أماكن متعددة من الرسائل، حيث يجعل من التفكر في المخلوقات سببا رئيسيا للإخلاص بحيث: " يكسب المرء حضورا وسكينة بالإيمان التحقيقي وباللمعات الواردة عن التفكر الإيماني في المخلوقات، وهذا التأمل يسوق صاحبه إلى معرفة الخالق سبحانه فتنسكب الطمأنينة والسكينة إلى القلب. حقا إن تلمع هذا النوع من التأمل في فكر الإنسان يجعله يفكر دائما في حضور الخالق الرحيم سبحانه ورؤيته له، أي انه حاضر وناظر إليه دائما، فلا يلتفت عندئذ إلى غيره، ولا يستمد من سواه، حيث إن النظر والالتفات إلى ما سواه يخل بأدب الحضور وسكينة القلب، وبهذا ينجو الإنسان من الرياء ويتخلص منه".

والنورسي هنا يركز على الكون باعتباره قرانا منظورا يدعو من خلاله للتأمل، ويمكن كذلك أن نستمدها من خلال النظر إلى الأسماء الحسنى. لقد كانت الآية الكريمة: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ الله كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سُورَةُ الرُّومِ : ٥٠)

أستاذا للنورسي ومنبعا لرسائل النور، حيث الأخلاق عند النورسي هي اتباع ما أمر الله تعالى به، والانتهاء عما نهى عنه مشروحة بسلاسة وبساطة، دون أي تعقيد، يستطيع فهمها الكل.

ويذهب بنا النورسي بعيدا عندما يثبت بأن الأخلاق هي المحرك الأساس الذي تعلو أو تنحط به الأمم، ويضرب المثال لذلك بالأمة اليابانية التي أخذت ما هو صالح في الثقافة الغربية وتركت المضر وحافظت بذلك على أصولها، فلم تنجر وراء سفاهات أوربا في حين أنها ضاهتها في التقدم الصناعي والتفوق العلمي ومحافظة بذلك على أخلاقها وطبيعتها الآسيوية المعتدلة، فلذلك أول ما ربى عليه طلبته هذا الأمر، فألقى درس الأخلاق بل مارس وطبق.

وسلوكيات طلبة النور الذين رباهم على يديه تشهد لذلك، يقول النورسي: "أما مسلكنا فهو التخلق بالأخلاق المحمدية ﷺ".[٦]

وحتى نستطيع أن نلخص المنهج الذي يتبعه الأستاذ النورسي في رسائله حيال مسالة الأخلاق، لابد من عرض ما يلي:

١- استنطاق الكون عن خالقه يقوي الإيمان ويرفع مستوى الأخلاق.

٢- مراقبة الله عز وجل أساس للتخلق بأخلاق القران.

٣- عقيدة اليوم الآخر أساس، بل نتيجة وثمرة للحياة الدنيا.

وللتفصيل في محاورة الكون انطلاقا من الحديث الشريف :"تفكر ساعة خير من عبادة سنة "[٧] من النوافل، أن الناظر إلى الكون بعين باصرة، والمتأمل في آفاقه بتمعن، تتبين له دقة الصانع وبراعة المصور، بما يحتويه من بهاء وانتظام، فتسمو نفسه ويعلو ضميره ويترفع عن السفاسف ويتخلق بخلق حسن، يقول الأستاذ:" إن آيات كثيرة في القران الكريم أمثال الآية العظمى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (سُورَةُ الإِسْرَاءِ : ٤٤)

تذكر في مقدمة تعريفها لخالق هذا الكون - السموات - التي هي اسطع صحيفة التوحيد، بحيث ما يتأمل فيها متأمل إلا تغمره الحيرة ويغشاه الإعجاب، فيستمتع بمطالعتها بكل ذوق ولذة، فالأولى إذن أن يستهل بها. نعم إن كل من يأتي ضيفا إلى مملكة هذه الدنيا ويحل في دار ضيافتها، كلما فتح عينيه ونظر رأى: مضيفا في غاية الكرم، ومعرضا في غاية الإبداع، ومعسكر تدريب في غاية

---

(٦) الخطبة الشامية ص ٨٥

(٧) انظر الحافظ العراقي في تخريج الإحياء ج ١/٥٨ وانظر كشف الخفاء للعجلوني ج ١ /٣١٠ والأحاديث المشكلة ص ١١٣

الهيبة، ومتنزها جميلا في غاية الروعة، ومشهرا في غاية الإثارة للشوق والبهجة، وكتابا مفتوحا ذا معان في غاية البلاغة والحكمة، وبينما يولع الضيف السائح أن يعلم ويتعرف على صاحب هذه الضيافة الكريمة، وعلى مؤلف هذا الكتاب الكبير، وعلى سلطان هذه المملكة المهيبة، إذا بوجه السموات المتلألئ بالنجوم النيرة يطل عليه مناديا: "انظر إلي فأنا أعرفك بالذي تبحث عنه"(٨). هكذا إذن يجعل النورسي الكون وما يحتويه من عجائب، معرفا بخالقه عز وعلا، ولا يتضح ذلك إلا لمن غمر نفسه في التفكر والتأمل، فالكون لا يخاطب عابر سبيل، بل المتمعن في دقائقه، والمغرق في تحسس آثاره البارعة، فيعرفه بذلك على بارئه الجميل وخالقه العظيم، ويقول أيضا: "فكل هذه المخلوقات العجيبة والأكوان المحيرة تنادي، انظر إلي لأرشدك إلى من تبحث عنه بشوق ولهفة، وأعرفك بذلك الذي أرسلك إلى هنا "(٩). من هنا يتحلى بما يأمره به ربه، لأنه يراه في كل مكان، بل في كل جزء في الكون. أما الشخص الذي لا يؤمن بخالقه عز وجل ولا يستطيع أن يتملى صفة جمال الكون، وحتى إذا تملاها، فلا يحيل تلك الصنعة إلى الخالق سبحانه، بل ينسبها إلى الطبيعة، فإن نفسه تتردى في أوحال السفاهة، وتغرق في مستنقعات الضلالة، ويكون فاسدا مفسدا في الكون، غير آبه بما يحيط به من عظمة الخالق، يغدو منحرفا لا يعرف للصلاح سبيلا.لكن عندما يجد الإيمان طريقا إلى قلبه، يستيقظ ضميره، وتعلو روحه، ويتخلق بأخلاق القران. يقول النورسي: " فيا هذا الإنسان الذي يحسب نفسه إنسانا، أنت قصر عجيب جدا وعمارة غريبة جدا، فما دامت ماهيتك هكذا، فلا يكون خالقك إذن إلا ذلك الذي يتصرف في الدنيا والآخرة بيسر التصرف في

---

(٨) الشعاعات ص ١٤١
(٩) الشعاعات ص ١٤١-١٤٢

منزلين اثنين، ويتصرف في الأرض والسماء كتصرفه، في صحيفتين ويتصرف في الأزل والأبد كأنهما الأمس والغد، فلا معبود يليق بك ولا ملجأ لك ولا منقذ إلا ذلك الذي يحكم على الأرض والسماء ويملك أزمة الدنيا والعقبى[١٠].

يتميز الكون بالتنسيق والجمال والنظام والانتظام، حيث إن موجودات الكون بأنواعها المختلفة تتعاون فيما بينها تعاونا وثيقا هذا إنما يدل على وحدة الكون واندماجه بحيث إن من لا يقدر على أن يتصرف في الكون كله، لا يمكن أن يكون مالكا ملكا حقيقيا لأي جزء منه، حيث يقول النورسي: "إن موجودات الكون بأنواعها المختلفة تتعاون فيما بينها تعاونا وثيقا، ويسعى كل منها لتكملة مهمة الآخر، وكأنها تمثل بمجموعها وأجزائها تروس معمل بديع ودواليبه - الذي يشاهد فيه هذا التعاون بوضوح -فهذا التساند وهذا التعاون بين الأجزاء، وهذه الاستجابة في إسعاف كل منها لطلب الآخر، وإمداد كل جزء للجزء الآخر بل هذا التعانق بين الأجزاء، يجعل من أجزاء الكون كله وحدة متحدة تتعصى على الانقسام والانفكاك يشبه في هذا وحدة أجزاء جسم الإنسان الذي لا يمكن فك بعضها عن البعض الآخر.[١١]

إن أساس الأخلاق إذن كما يقرر النورسي، يتجلى بوضوح في معرفة الخالق سبحانه، فمن خلال التأمل في الكون، والتبصر في الملأ، والنظر إلى الآفاق بعين العقل، يتبدى للعاقل قدرة الصانع، وبالإيمان به يرجع إلى الصواب، ويركن إلى أوامره تعالى. يقول النورسي: "إن في كل شيء وجوها كثيرة جدا متوجهة -كالنوافذ- إلى الله سبحانه وتعالى بمضمون الآية الكريمة: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ (سُورَةُ الإِسْرَاءِ:٤٤) إذ إن حقائق الموجودات وحقيقة

(١٠) اللمعات ص ٢٠٦

(١١) اللمعات ص ٥٤٠

الكائنات تستند إلى الأسماء الإلهية الحسنى، فحقيقة كل شيء تستند إلى اسم من الأسماء أو إلى كثير من الأسماء، وان الإتقان الموجود في الأشياء يستند إلى اسم الله الحكيم، وعلم الطب يستند إلى اسم الشافي، وعلم الهندسة يستند إلى اسم الله المقدر، وهكذا كل علم من العلوم يستند إلى اسم من الأسماء الحسنى وينتهي إليه. كما أن حقيقة جميع العلوم وحقيقة الكمالات البشرية وطبقات الكمل من البشر تستند كلها إلى الأسماء الإلهية الحسنى" .(١٢)

كما يوضح لنا الأستاذ مدى تأثير دور الإيمان على القلوب، ومدى العلاقة الرابطة بينه وبين التأمل في الكون، والذي تتولى الأسماء الحسنى فك طلاسيمه، وتغيير المرء من السفاهات إلى التحلي بأخلاق عالية.

إن كل شيء في الوجود يعرفنا بخالقنا، فمن الذرة إلى المجرة وما بينهما من سموات وأرضين وبحار وشموس ونجوم، ينادينا لكي ننظر من نوافذه إلى ذات الله عز وجل عبر الأسماء الحسنى المتجلية فيه، فكل ما حوالينا يحمل أسماء إلهية، من خلالها يتجلى لنا، فما علينا إلا أن ننظر بعقولنا نجد أمامنا قدرة الله. هكذا يوضح الأستاذ لطلبته ويفسر لهم، خصوصا في "الآية الكبرى"، التي هي عبارة عن سياحة قلبية لعارف يسال عن ربه فيجده ويتعرف عليه في كل مكان، بل في كل ذرة من ذرات الكون، حيث يعبر في غير ما موضع بأن السائح الذي جاب الفضاء والجبال والصحارى والبحار والأنهار، فاستنطقها فخاطبته بالكلام الأزلي فعلمته أن هذا الكون ليس فضاء عبثا، وأن ساكنيه ليست جمادات غير متحركة، بل الكل موظف ويقوم بمهمته، وأن للكون سلطانا أزليا صاحب الأمر، فآمن وصدق وراقب الله عز وجل في السر والعلن.

---

(١٢) الكلمات الكلمة الثانية والثلاثين الموقف الثالث ص ٧٤٩

فإذا تمعنا قليلا في الكون ووجدناه هكذا معرفا لنا ودلالا لنا على خالقنا الرحيم وإلهنا القدير، فلا شك أننا نخلص إلى الفقرة الثانية، وهي مراقبة ذلك القدير لنا، فما دامت كل ذرة من جسمنا تلهج بذكره سبحانه، وما دامت كل جزيئة تدل عليه، وما دام الكون بكل أجزائه ومحتوياته يسبح لله تعالى ذاكرا ومهللا ينبض بالحيوية، فلا شك انه معنا في غدونا ورواحنا. كل هذا يقتضي منا صرف أوقاتنا كلها تحت مراقبته سبحانه وعينه التي لا تنام، مما يجعلنا ويحتم علينا التخلق بأخلاق إسلامية. من هنا يختلف ويتميز العارف لربه عن المنكر له. فأساس الأخلاق إذن مراقبة الله تعالى في السر والعلن. يقول الله تعالى:﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (سُورَةُ ق : ١٦)

وقد وضح الأستاذ هذه المسألة في غير موضع، ومن استحضر الآية الكريمة: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ : ٥٤)

فما دامت تلك السموات وهي التي لا يمثل منها الإنسان أي شيء مسخرة بيد القدير، فإن نفسه أولى بذلك. ويقول تعالى أيضا ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ (سُورَةُ الْحَدِيدِ : ٤): "تدل دليلا قاطعا على الرقابة الإلهية، وأن الله تعالى مراقب لأفعال العباد. ويقول عز وجل أيضا ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (سُورَةُ الْحَدِيدِ : ٣)

إن هذه الآيات وغيرها تدل بقطعية على أن الإنسان مجبر على أن يراقب أفعاله، لأن هناك يوما سيحاسب عليها لذلك لابد من التحلي بالأخلاق الحميدة، يقول النورسي :"لذا فلا معبود لهذا الإنسان وهذا وضعه إلا من بيده

مقاليد الأمور كلها ومن عنده خزائن كل شيء وهو الرقيب على كل شيء وحاضر في كل مكان ومنزه من كل مكان، ومقدس من كل قصور، ومتعال عن النقص، وهو القادر ذو الجلال ...".[١٣]

أما الوعد الذي وعد الله به المؤمنين، والوعيد الذي ينتظر الكافرين، فله دور كبير في تحلية السلوك بأخلاق إسلامية، فالعاقل هو الذي يستغل جل أوقاته في طاعة الله سبحانه، والابتعاد عن سفاسف الأمور،حيث إن هذه الدنيا دار امتحان، ومقر للخدمة من أجل نيل الثواب، ثم تأتي الدار الآخرة ليحصد كل امرئ ما قدمت يداه، فلذلك اقتضي تقويم السلوك. ويقول النورسي: "إن رأس مال حياتنا هو هذه الساعات الأربع والعشرون التي يحملها إلينا اليوم نعمة خالصة من نعم خالقنا الكريم جل جلاله، لنكسب بكل ساعة من هذه الساعات ما يلزمنا وما هو ضروري في حياتينا كلتيهما الدنيوية والأخروية، وما لم نصرف ساعة واحدة وهي كافية لأداء الصلوات المفروضة لحياتنا الأخروية الخالدة، بينما نصرف ثلاثا وعشرين ساعة في سبيل هذه الحياة الدنيا القصيرة، نكون قد ارتكبنا خطأ جسيما لا يستصوبه عقل سليم، فلا جرم أننا نعاني نتيجة هذا الخطأ الفادح، غلظة القلب وقسوته، وانقباض الروح وظلمتها، المؤدية بمجموعها إلى تعكير صفو الأخلاق، وتلوث نقاوة الروح، وفوق هذا تمضي حياتنا رتيبة مملة يائسة خاوية المعنى، فيصيبنا الضجر".[١٤]

ويأتي الوعد والوعيد باعتباره أسلوبا مناسبا لردع السفاهة من أجل الثواب أو العقاب يوم القيامة، مرسخا لعقيدة الآخرة، لذلك على الذين لا يضبطون تصرفاتهم أن يحاولوا التحلي بأخلاق سامية، كما يتوجب على الذين يهدرون أوقاتهم في العبث والفراغ أن يتيقظوا.

---

(١٣) الكلمات ص ٣٥٩

(١٤) الشعاعات ص ٢٤٢

الخاتمة:

ويبقى سعيد النورسي رحمه الله رائد الأخلاق في عصرنا، كما يعتبر مجددا للقرن العشرين، بما أثر عنه من رسائل النور، التي جعلت من القران الكريم منبعها الأصلي، فكانت من بين مقاصدها المتعددة الحفاظ على الإيمان في زمن تعرض فيه للتزعزع، وتقويم الأخلاق في عصر هددت فيه من طرف العبثيين.

وقد وفقه المولى الكريم لإخراج طلبة يأخذون هذا المشعل.

الأخلاق في مواجهة العولمة

تأملات حول المنهج إنقاذ الهوية الإنسانية

د. محمد جكيب
جامعة شعيب الدكالي
الجديدة - المغرب

تعيش الأمة الإسلامية في هذا العصر وضعا مزريا، يبعث على الشعور بالحزن والألم والغربة، بفعل عوامل عديدة، يتصل بعضها بواقع هذه الأمة العقدي والأخلاقي، ويتصل بعضها الآخر بالواقع التاريخي والسياسي والاقتصادي، لكن في الوقت الذي يغلب فيه التحليل السياسي والاقتصادي على أغلب التحليلات الساعية إلى مقاربة الأزمة، يغيب العامل الذاتي في البحث عن أجوبة حقيقية ملموسة تشخص الأزمة تشخيصا دقيقا وتحدد أسبابها، أي إن البحث عن الجواب لا يطلب في عمق الذات، وفي عمق علاقة هذه الذات بالأزمة، إذ يتم إرجاع الأسباب إلى العوامل الخارجية المتمثلة في حرب الآخر الغربي على المجتمعات الإسلامية، أو إرجاعها إلى الصراع الحضاري وغير ذلك من التعليلات، التي وإن صحت بعض جوانبها، فإنها ليست التعليل الوحيد للأزمة.

سؤال الذات كان وما يزال سؤالا عالقا، لأن الظروف التاريخية التي تحكمت في إثارته أول مرة في العصور الحديثة، لم تكن ظروفا سليمة تسمح بإثارته بمنهجية صحيحة، فأسئلة من نحن؟ وماذا نريد؟ وكيف نصل؟ عندما أثيرت أول مرة أثيرت في ظل ما نطلق عليه "صدمة الآخر".

أحدثت الحملة الفرنسية في مصر شرخا كبيرا في رؤية المتنورين من أبناء هذا البلد الإسلامي العربي، الذي كان يعتبر آنئذ مركزا حضاريا وفكريا متميزا، وهي وضعية عرفتها مراكز أخرى من مراكز العالم الإسلامي وخاصة مركزه الأساسي وهو إسطنبول.

عرفت أغلب أقطار العالم الإسلامي حالات من الضعف والتقهقر الحضاري تمثل في غياب وعي كاف بالذات، لقد عاشت الذات الإسلامية وخاصة في العالم العربي "صدمة الآخر" وهي لا تحمل في جعبتها ما يؤهلها لتفاعل إيجابي يترجم إلى سلوك حضاري ملموس دون تناقض بين ما راكمته الهوية الدينية والتاريخ وبين معطيات الحضارة الوافدة، فلم تجد سوى الانبهار بهذا الآخر، ولما كانت الذات لا ترضى بأن تكون تابعا بفعل ما ركزته العوامل التاريخية في أعماقها من اعتقاد راسخ بأنها الأمة التي يجب أن تقود العالم والناس، لأنها خير أمة أخرجت للناس، فقد وقعت صريعة تفوق الآخر المدني والعلمي، واعتبرت ذلك تفوقا حضاريا دون أن يكون لها حد أدنى من الوعي بالذات، وحقيقة الهوية التي تحتويها، ولذلك لم يكن بمقدور الفئة المتنورة أن تتفاعل التفاعل المثمر مع ثقافة الآخر، ففشلت مشاريع الإصلاح المختلفة، التي تبعت انتهاء الحملة الفرنسية فشلا ذريعا، بعد أن صارت الدعوة إلى الإصلاح الموضة التي يرتمي في أحضانها كل المشاريع الإصلاحية، وهو سلوك طبيعي، لأن العالم الإسلامي وخاصة العالم العربي كان حديث الخروج أو بعبارة صحيحة حديث محاولة الخروج من فترة الركود الحضاري، علما بأن أغلب

مشاريع الإصلاح هذه لم تستطع أن تغادر حيز الحبر الذي كتبت به، ويرجع ذلك إلى القطيعة بين ما كانت ترومه تلك المشاريع وحقيقة الواقع والظروف التاريخية المحيطة، لقد كانت تلك الأحلام مجرد أحلام تفتقر إلى الاستراتيجية العملية التي ستفعلها.

طرح سؤال الذات من نحن؟ وماذا نريد؟ يستلزم هذا الترتيب، أي ترتيب وعي الذات من خلال سؤال من نحن؟ لتأتي بعد ذلك مرحلة تحديد الاستراتيجيات، التي يتوجب أن تقوم على أساس وعي كامل بحاجة الواقع ومتطلباته ووعي الذات، لكن المحاولات الأولى عكست الأولويات، وإن راعت الترتيب المفترض.

كانت الغالبية العظمى من المتنورين تجتهد في البحث عن النموذج، كما تجتهد في اقتباسه وهي مسكونة بهم إدخال الأمة في معترك الدائرة التي دخلها الآخر دون التفكير في السبل الحقيقية التي تجعل الدخول دخولا طبيعيا، والميلاد كذلك ميلادا طبيعيا، استوفى مدة الحمل، لا ولادة قيصرية قبل الأوان.

وبكلام آخر لقد وقعت "صدمة الآخر" والذات تعيش الأوضاع الآتية:

- الجهل الكلي أو شبه الكلي بالذات، وبما تختزنه من زخم حضاري وفكري، على أن الوعي بالذات ليس المراد به التعرف على ما أنتج من عطاء فكري وثقافي وحضاري، إذ على الرغم مما يمثله هذا التصرف من أهمية في بناء الوعي الجماعي لأمة من الأمم إلا أن هذا السلوك هو النتيجة الطبيعية لقياس مدى وعي الذات ذاتها، لأن الوعي الصحيح هو أن تتمكن الذات من إدراك الأسباب المؤدية إلى تلك النهضة منذ بداية نزول الوحي على الرسول ﷺ [1].

---

(١) لقد عمل بعض أعلام ما يسمى بعصر النهضة العربية منذ وقت مبكر بنشر العديد من الذخائر التراثية، وقد رافق ذلك حركة إصلاحية همت بعض المجالات، دون أن تكون نابعة من رؤية فكرية فرضها الواقع تبعا لانتشار وعي حضاري وفكري عم كافة طبقات المجتمع، يعتبر النهضة ضرورة،

- يضاف إلى هذا العامل عامل انتشار الأمية على نطاق واسع، وهو أمر لا يساعد على قيام نهضة حقيقية، بالنظر إلى أن النهضة فعل مجتمعي يشارك فيه جميع أفراد المجتمع.

- انتشار التقليد في كافة المجالات، وخاصة في مجال التدين، الذي ضاق مرارة استفحال الطرقية البدعية المؤسسة على الخرافة، وغياب منهج واضح في التربية السلوكية والروحية المرتكز على الصفاء النفسي، ووضوح الرؤية، كما يتجسد هذا التقليد في غياب الوعي الكلي العميق بحقيقة الدين والتدين، فعلماء الأمة وهم نخبة المجتمع الإسلامي لم يكن بمقدورهم التفاعل مع قضايا المجتمع من منظور إبداعي يمكنهم من إيجاد أجوبة مقنعة لأسئلة الواقع، تستطيع الانتقال به، وتحويله من مجتمع راكد وخامل لا قدرة له حتى على إعادة قراءة تراثه بروح متجددة، وأنا للمجتمع بهذه الحيوية وهو لا يعي ذاته، ولا يعي كونه ملزما بإثارة أسئلة زمانه، بل لا يعي حتى طبيعة هذه الأسئلة.يقول النورسي مشخصا هذه الظاهرة التي وإن كانت تخص علماء تركيا أو الدولة العثمانية، إلا أنها تنطبق على واقع الأمة في العصر الحديث:

« إنني استمعت إلى الوعاظ. فلم تؤثر فيّ نصائحهم ووعظهم. فتأملت في السبب، فرأيت أنه فضلاً عن قساوة قلبي هناك ثلاثة أسباب:

١- أنهم يتناسون الفرق بين الحاضر والماضي فيبالغون كثيراً في تصوير دعاويهم محاولين تزويقها دون إيراد الأدلة الكافية التي لا بد منها للتأثير وإقناع الباحث عن الحقيقة، فالزمن الحاضر أكثر حاجة إلى إيراد الأدلة.

لكن هذا لم يكن هو واقع الحال لأن التفكير في النهضة كان هم فئة ضيقة من فئات المجتمع، وفكر فيها من خلال منظومة غريبة عن الواقع المحلي، أن من خلال المنظومة الغربية، المختلفة عن هوية الذات وثقافتها.

٢- انهم عند ترغيبهم بأمرٍ ما وترهيبهم منه يُسقطون قيمة ما هو أهم منه، فيفقدون بذلك المحافظة على الموازنة الدقيقة الموجودة في الشريعة، أي لا يميزون بين المهم والأهم.

٣- إن مطابقة الكلام لمقتضى الحال هي أرقى أنواع البلاغة، فلا بد أن يكون الكلام موافقاً لحاجات العصر. إلاّ انهم لا يتكلمون بما يناسب تشخيص علة هذا العصر، وكأنهم يسحبون الناس إلى الزمان الغابر، فيحدثونهم بلسان ذلك الزمان.

فعلى الوعاظ والمرشدين المحترمين أن يكونوا محققين ليتمكنوا من الإثبات والإقناع. وان يكونوا أيضا مدققين لئلا يفسدوا توازن الشريعة. وأن يكونوا بلغاء مقنعين كي يوافق كلامهم حاجات العصر. وعليهم أيضاً أن يَزنوا الأمور بموازين الشريعة.»[٢]

يشخص هذا النص حقيقة ما كان عليه نخبة الأمة من عجز عن النفاذ إلى عمق الأشياء، وجعل خطابهم خطابا مؤثرا يستطيع تفعيل المجتمع وبث روح الحيوية فيه.

إن الأمة اليوم مطالبة أكثر من أي وقت مضى، بأن تعيد طرح سؤال الذات لأن الأزمة في العمق أزمة ذات تجاه الأخلاق، لا أزمة ذات تجاه الآخر، دون أن يلغي ذلك مسؤولية الآخر في صنع القدر الكبير من أزمة الأمة ثقافيا وأخلاقيا وسياسيا واقتصاديا، الأمر الذي افقد الأمة مناعتها ووضع حصانتها في مهب الاختراق، على الرغم من أن مقومات المناعة متوفرة كما لم تتوفر لأمة من الأمم.

---

(٢) صقيل الإسلام : ص ٤٧٣.

هذا التشخيص القاتم ضروري لتحديد مظاهر الداء، وتلك مرحلة يتحتم الشروع فيها قبل التفكير في العلاج. لقد فقدت الأمة مناعتها يوم انقطع ذلك الخيط الرابط الذي حولها من مجرد جماعة بشرية بسيطة، ومن مجرد قبائل متفرقة لا تدين بالولاء لمركز سياسي موحد، ولا تعرف من كيانات الوحدة شيئا سوى القبيلة، ومع ذلك فقد تحولت هذه الشرذمة في زمن قياسي إلى أمة موحدة، تدين بالولاء لله تبارك وتعالى وتتخذ من القرآن دستورا لها، ومن المنهج النبوي مصباحا ينير لها الطريق، فتمكنت في وقت وجيز من أن تتربع على قمة تدبير شؤون العالم والتأثير فيها، وكل ذلك بفضل الثورة الأخلاقية التي أحدثها القرآن الكريم في القلوب وفي السلوك، بفضل المسالك التربوية التي اتبعها الرسول ﷺ مع الصحابة رضوان الله عليهم ومع عموم المسلمين.

علينا أن نعترف بأن عددا من المفكرين والدعاة يؤكدون بأن العلاج موجود في القرآن وفي السنة النبوية الشريفة وفي سيرة الرسول ﷺ وسيرة صحابته، ومع ذلك لا يكاد المرء يلمس أثرا لتلك الدعوات.

إن المرء ليضيع وسط زخم الدعوات والأفكار الداعية إلى ضرورة الرجوع إلى الإسلام، كما يضيع وسط العدد المتزايد من القنوات التلفزية الإسلامية، التي تتخذ من الدعوة منهجا إعلاميا لها، ومع ذلك لا أثر لكل ذلك، فأين الخلل إذا؟

لن نجد الخلل دون مواجهة النفس بهذه الحقائق المرة وهي حقيقة وجود حالة من الجهل بالذات لم يتمكن (مبني للمجهول) حتى الآن من الإمساك بها، ويزداد الحال تفاقما في ظل الأوضاع الآتية:

- تنامي العداء للإسلام، وهي حالة لم يعد أحد ينكرها، فقد ناصبت الآلة الليبرالية الرأسمالية الغربية العداء للإسلام والمسلمين.

- تقديس الليبرالية الرأسمالية المتوحشة، للحرية الفردية وتعظيم المصالح الذاتية على المصالح الجماعية، إلى درجة الكفر بالأخلاق والقيم، وجعل الإنسان مجرد شيء يباع ويشترى، خاصة عندما تكون القيم الأخلاقية عائقا يحول بينها وبين مصالحها، إذ عندما تتعارض المصالح الاقتصادية مع القيم الإنسانية، ومع الإنسان يضرب بالإنسان وبالقيم عرض الحائط، ويرمى بها على الهامش.

- وقوع العالم في شرك إعلام متوحش يسلب الألباب، ويجعل الإنسان مجرد أداة استهلاكية، ووسيلة لتنفيذ مصالح الآلة الرأسمالية، واستقبال قشور ثقافتها القائمة على الاستهلاك، لأن الغرب الرأسمالي يدبر أمره وفق نمط لا يسمح للآخر بالحصول على ما قد يشكل خطرا على ريادته المتوحشة للعالم.

ولأجل ذلك فقد حصن هذا الغرب نفسه بأبواق تنتصر لثقافته شكلا ومضمونا، وإحكاما للسيطرة يتم تضييق الخناق على الإسلام باعتباره دينا يبشر برؤية أخلاقية تبني كل ما تدعو هي إلى هدمه.

- مثقفون يروجون لثقافة الفرقى والتشتت.

- تنامي المد المسيحي المحافظ في أمريكا وتحالفه مع الصهيونية العالمية، بغرض إقصاء الإسلام عن دائرة المنافسة الحضارية، وتأجيل صراعهما إلى ما بعد المهمة الخطيرة، إيمانا منهم بأن الإسلام خصم قوي لا قدرة لطرف واحد على مواجهته.

- عامل العولمة المتوحشة التي أصبحت تسيطر على العالم، وهي تسير به إلى نفق مظلم لا يستطيع أحد التكهن بنهايته.

إذا كان الإنسان في الغرب قد تحول بفعل العلمانية (بالكسر)، إلى عبد

للمادة ولسلطة العلم، وإلى مجرد أداة تستهلك ما أنتجه النجاح العلمي، من منتوج يحقق الربح الاقتصادي لمؤسسات الإنتاج والبيع، فقد أريد لهذا النموذج أن يسود العالم.

فالعولمة المتوحشة لا تخفي معطياتها المتوفرة الآن أنها نموذج إنساني معد وفق نمط محدد هو النمط الغربي. إذ كلما تقدم العلم وتطور الإنتاج، زادت الحاجة إلى التسويق، الذي يستدعي سيادة نمط حياة هو النمط الغربي القائم على مبدإ الاستهلاك، ومن هنا تتأكد الحاجة إلى الملايين من الناس في العالم والعالم الإسلامي جزء مهم في هذه المعادلة الحيوية لتصريف البضاعة، من خلال جعل هذه الأسواق تابعا اقتصاديا للمحور المنتج، ليبرز بذلك المفهوم الحقيقي للعولمة، وهي فرض نمط محدد من التفكير يصيّر الفرد مجرد رقم ليس غير.

إن الخلفية الفكرية التي تحرك مؤسسة العولمة وإن سلمنا على سبيل الفرض أن أحدا لم يقم بتأسيسها، ولكنها نتيجة موضوعية للفكر الليبرالي المتوحشة المرتكز على الحرية المطلقة المتحررة من كل قيمة أخلاقية إلى درجة التسيب على أساس أنها سيدة نفسها، وهو ما يعني حرصها على المصلحة الذاتية بعد الإلغاء المنطقي لمصلحة الغير، فهذه الرؤية ذات الاتجاه غير الأخلاقي والمتوحش تعتبر الإنسان مجرد أداة للتوظيف في كل المجالات ليتحول الفرد في عرف المؤسسة إلى مجرد رقم لا باعتبار ما كان، بل باعتبار ما سيكون، أي مجرد أداة إنتاج تدر رقما من الأرباح على المؤسسة، والتي يستحيل على دواليبها التوقف عن التفكير في إبداع الوسائل، التي تجعل الرقم الذي تدره الأداة/ الفرد رقما قياسا يتجاوز نفسه بنفسه.

لقد كشر الغرب عن أنيابه، ولم يعد العداء للإسلام والمسلمين أمرا خافيا على أحد، واعتقاد الغرب راسخ منذ زمن بأن الشرق الإسلامي لا سبيل إلى اكتساحه إلا بالغزو الثقافي والفكري، ولتحقيق ذلك يتحتم فصله عن هويته الإسلامية وتعطيل حضور القرآن في كل مناحي الحياة، بل وجعله مجرد نصوص منفتحة على مختلف التأويلات والقراءات، أو مجرد كتاب لا روح فيه ولا حياة، وبعبارة أخرى جعل القرآن كتابا مهجورا، تمهيدا للتشكيك فيه، وتلك هي المهمة التي تصدى لها في القرن الماضي وما قبل الماضي بعض المستشرقين فنفثوا سمومهم بين صفوف بعض المثقفين في الجامعات، لكن مشروعهم باء بالفشل ولم يحقق المنتظر منه حسب ظني، فجرى تغيير المخطط، وهي أن يتم تسليط بعض أبناء المجتمعات الإسلامية لكي يقوموا بالمهمة الصعبة وهي مهمة التشكيك في مصدر القرآن والتشكيك في خطابه وإنزاله من مراتب القداسة إلى أسلف درك ومساواته بالكلام العادي.

وليس هذا فحسب لقد نشطت العقلية الغربية تجتهد من أجل ابتكار الأساليب التي تضمن في نظرهم القطيعة بين الهوية والذات وجعل الناس متعلقين بالحياة الدنيا بعد أن كان الأصل الذي انبنت على أساسه الحضارة الإسلامية هو التعلق بالآخرة وربط عمل الإنسان مرتبطا بتحصيل رضى الله ونيل مرضاته، فكانت النتيجة أن أبدعت العقلية المسلمة حضارة ما يزال أثرها شاخصا وبارزا، تنتظر من يعيد له الحياة.

إن هذا المشروع الجديد مشروع أكثر خطورة، وأكثر ضراوة في حربة لأنه يستفيد من كل الإمكانات التي حققها التطور العلمي في المجال الإعلامي والتواصل، إذ ليس في مقدور أحد التنكر للسرعة الكبيرة التي تنتقل بها الأفكار والمعلومات، وسرعة انتشارها بين العدد الواسع من الناس، إضافة إلى سهولة

الوصول إلى المعلومة، الأمر الذي يجعل من مخطط صياغة الرؤى والأفكار وفق أنماط معينة أمرا سهلا.

إن الأزمة مرتبطة في العمق بالإنسان، فالأزمة أزمة إنسان، إذ هو المفتاح الوحيد الذي سيمكن الأمة والإنسانية جمعاء من الخروج من هذه الورطة التاريخية، على أن هذا الإنسان نفسه في حاجة إلى مفتاح يفتحه، ومفتاحه هو الأخلاق.

إن الأخلاق المقصودة في هذا المقام ليست تلك الأخلاق التي أسهب الفلاسفة في الحديث عنها منذ أقدم العصور، بل هي تلك التي تصنع الإنسان وتحوله إلى طاقة فعالة تنتج الفعل وتأثيره في كل وزمان ومكان، إنها الأخلاق البانية والأخلاق البانية أخلاق واحدة هي التي بشرت بها كل الديانات السماوية وختم اكتمالها الإسلام، وجسد مظهرها الواقعي الرسول ﷺ.

يضع الكلام المتقدم الذات أمام قضية عريضة وهي كيف نخلق الإنسان القادر على الدخول في تفاعل مع الكون امتثال للأمر الإلهي في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (سُورَةُ فُصِّلَتْ : ٥٣)

فالقدرة على مواجهة كل ما يحيط بالإنسان في هذا العالم من وقائع اجتماعية وثقافية وحضارية واقتصادية وسياسية، وغيرها مظهر من بين المظاهر الكثيرة في هذا الباب، والعولمة المتوحشة جزء من ذلك، فكل ما يواجه الإنسان من مخاطر لا يمكن التصدي له سوى بحقن الإنسان المسلم وغير المسلم بحقنة الأخلاق، وبروح القرآن الكريم.

وبداية يتوجب الانفتاح على مختلف الرؤى والأفكار التي درست القرآن الكريم باعتباره مصدرا للبحث عن الحلول لمشكلات العالم، على أن الانفتاح

على كل ذلك لا يعني استنساخ تلك الأفكار من أجل إسقاطها على واقع غير الواقع الذي ظهرت فيه وأفرزته، بل يعني الاستفادة من المنهج والأسلوب ومن الطاقة الخفية التي صنعت فعاليته.

سنتحدث في هذا السياق عن تجربة رجل له من التميز ما ليس لغيره ممن سبقه أو عاصره، رجل اختاره القدر لكي يؤدي مهمة عظيمة، لم يكن ليجني هو نفسه ثمار دعوته ومشروعه الإصلاحي لأنه اعتبر نفسه مجرد خادم مكلف بمهمة يلزمه القيام بها وبشروطها ما وسعه لذلك من جهد وطاقة ووقت، دون أن يبالي بما سيحقق لنفسه الأمارة بالسوء كما كان يقول من فضل دنيوي، فأمضى جل عمره بين السجون والمنافي، والتنقل من أجل تعريف الناس كيفية إدراك شمس القرآن التي لا تغيب.

النورسي رجل القدر في حياة أمة، رجل أحيا شعبا وأيقظ أمة، كما أطلق عليه أورخان محمد علي،[٣] لقد سخره القدر لكي يقوم بمهمة إنقاذ الإيمان في تركيا بعد أن نجح العلمانيون في إلغاء الخلافة الإسلامية، وإحكام الغرب سيطرته بتشويه كل ما يربط الأمة بهويتها.

إن الإخلاص لهذا الدين والإخلاص للقرآن الكريم والإخلاص للرسول ﷺ ، وإيمانه بالقضية التي نذر لها حياته كلها، جعلت دعوته تلقى استجابة كبيرة في مجتمع مارس عليه أعداء الإسلام كل ما وسعهم من تغريب وفصل عن الهوية وتثبيت القطيعة مع الدين والتدين، لكن القدر الإلهي كان له رأي آخر ﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين﴾،[٤]

---

(٣) انظر كتابه سعيد النورسي، رجل القدر في حياة أمة، دار الفضيلة،

(٤) سورة آل عمران، الآية ٥٤.

فلا أحد يستطيع أن يجادل في أن أفكار بديع الزمان سعيد النورسي قد نجحت فعلا في أن تنقذ الإيمان، وأن تبقي جذوته مشتعلة في قلب المجتمع الأناضولي، ليظل مجتمعا مؤمنا معتزا بإيمانه وهويته الإسلامية، بل لقد مكنه ذلك من الوسائل التي سمحت للمجتمع من أن يكيف نفسه مع ما فرضه عليه الفكر العلماني، فأنتج منظومة تغلغلت في أعماق العلمانية لتعيد إنتاج رؤية لم تستطع العلمانية والحرب الضروس على الإسلام أن تناقضها، كل ذلك بفضل المنهج الذي طور النورسي بعض مقوماته، وهو منهج يستوعب المنهج النبوي، المرتكز على بناء الإنسان من خلال ربطه بالملكوت الأعلى، وتحويل كيانه كله اعتقادا وسلوكا، وتحويل كل نبض وهمس فيه إلى أحوال مرتبطة بالله تبارك وتعالى من زاوية العبودية له، الأمر الذي جعل المجتمع منفتحا على عصره ومنسجما مع ما فرضته الظروف التاريخية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، مع التشبع بروح الهوية الإسلامية.

فكيف تمكن هذا الرجل الأمة من إنقاذ الإيمان؟ وكيف حال فكره ومنهجه بين ما كانت تريده المادية التي سعى الساسة إلى جعلها مذهب الأمة؟ وما أهم المرتكزات التي قامت عليها دعوته؟ وكيف أجاب على مشكلات عصره؟ وكيف نقل الأجوبة إلى مريديه وأتباعه وكل المجتمع التركي؟ وهل من سبيل إلى الاستفادة من رؤيته في الإجابة على المشكلات التي تعرفها مجتمعاتنا الإسلامية أم أن أفكار النورسي أفكار مرتبطة بزمانها، وهو فترة سقوط الخلافة الإسلامية وقيام المشروع العلماني في تركيا؟ ومرتبطة بمكانها وهو تركيا ومنطقة الأناضول؟

إن الوضع الحالك الذي مر به المجتمع التركي، وكذلك المجتمع الإسلامي وخاصة في العالم العربي، يكاد يكون هو الواقع نفسه الذي تمر منه الأمة في أيامنا هذه.

ولقد تنبه النورسي إلى هذا الوضع الخطير، من خلال ملاحظته لما كان يجري في وطنه تركيا، فأدرك بعينه الثاقبة وبعد نظره أن أعداء الأمة ماضون في تدجين المجتمع وفق نمط يعزز حب الدنيا، ويكره الآخر، فانبرى ينبه الناس إلى الخطر الذي يحدق بهم في الحاضر والمستقبل، ويتهدد أهم مكسب يمكن تحصيله وهو الأخلاق، التي كان الرسول ﷺ يذكر بها من خلال قوله (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)، والنورسي عندما يدق ناقوس الخطر محذرا من الخطر الذي يتهدد الأمة بفعل ذلك، يعلم أن هوية الأمة متصلة شديد الاتصال بالدين، وبالأخلاق، ويدرك أن الأمة إذا فرطت في رصيدها ذاك تاهت في حمأة الحياة الدنيا، وكأني به وهو يشخص وضع وطنه في الزمان والمكان، قد نظر متوجها إلى المستقبل وإلى ما سيكون عليه الوضع في العالم الإسلامي، وفي العالم بكامله فعبر عنه بقوله:

«إن خاصية هذا العصر هي أنها تجعل المرء يفضّل - بعلم - الحياة الدنيا على الحياة الباقية. حتى أصبح تفضيل قطع الزجاج القابلة للكسر على الألماس الباقية عن علم، يجري وكأنه دستور وقاعدة عامة. فكنت أحار من هذا حيرة شديدة، ولكن أُخطر على قلبي في هذه الأيام الآتي:

كما إنه إذا اشتكى عضو من الجسد تداعى له سائر الجسد تاركاً قسماً من وظائفه، كذلك جهاز الحرص على الحياة والحفاظ عليها والتلذذ بالحياة وعشقها، المندرج في فطرة الإنسان قد جُرح في هذا العصر فبدأ يُشغل سائر اللطائف به لأسباب عديدة محاولاً دفعها إلى نسيان وظائفها الحقيقية.(...)

كذلك الحياة الإنسانية في هذا العصر ولاسيما الحياة الاجتماعية فقد اتخذت وضعاً مخيفاً ولكن ذات جاذبية، وحالة أليمة ولكن تثير اللهفة والفضول، بحيث تجعل عقل الإنسان وقلبه ولطائفه الرفيعة تابعة لنفسه الأمارة بالسوء حتى تحوّم كالفراش حول نار تلك الفتنة وترديها فيها.(...)

والحال إن هذا العصر قد غرز حب الحياة الدنيوية في عروق الإنسان، حتى انه يترك أموراً دينية ثمينة جداً كالألماس لحاجة صغيرة تافهة، أو لئلا يصيبه ضرر دنيوي اعتيادي.

نعم، إن هذا العصر الذي رُفعت منه البركة من جراء الإسراف المتزايد وعدم مراعاة الاقتصاد، ومن عدم القناعة مع الحرص الشديد، فضلاً عن تزايد الفقر والحاجة والفاقة وهموم العيش، مما سبب جروحاً بليغة في تطلع الإنسان للعيش وفي نزوعه لحفظ الحياة، علاوة على تشعب متطلبات الحياة المرهقة، زد على ذلك استمرار أهل الضلالة بتوجيه كل الأنظار إلى الحياة.. كل ذلك عمّق تلك الجروح حتى دفع الإنسان ليفضّل أدنى حاجة من حاجات الحياة على مسألة إيمانية عظيمة(...)»[٥]

ألا يشخص هذا الكلام بدقة شديدة القواعد الفكرية التي تتأسس عليها مؤسسة العولمة المتوحشة، أليست العولمة مجرد إطار فكري للتبشير بقيم مادية هدفها الرئيس هو تلبية المصالح الاقتصادية، والسيطرة على الأسواق وجعل الناس عبيدا للحياة الدنيا وحبها، وتصيير الأخلاق في مفهومها المدني العام إطارا هامشيا إذا تعارضت قيمه مع قيم العولمة، فإن الأولوية لقيم العولمة، بل تصيير هذه الأخلاق نفسها هدفا لحرب شرسة يتم الكيد لها ومحاربتها في عقر دارها، فالنتائج المنطقية للعولمة التي يتمنى أنصارها والواضعون خططها سيادتها في أقرب الآجال هي:

- أولا حرص الفرد على تحقيق حريته الفردية دون قيد ولا شرط فلا حدود لحرية الفرد، ومن هنا تأتي الدعوات المتكررة إلى إقرار حرية الفرد، واعتبارها مبدأا أساسيا من مبادئ حقوق الإنسان بصفة عامة دون النظر إلى دينه ولا إلى

(٥) كليات رسائل النور، الملاحق، ملحق قسطموني، ص: ١٤٢ ـ ١٤٣.

جنسه ولا إلى سنه ولا إلى وطنه، مع استعمال كل وسائل الضغط الممكنة على الحكومات والدول وإغراء المنظمات والجمعيات من أجل أن تطالب بهوامش أكثر اتساعا من الحرية، وما ذلك في ظني سوى ذريعة من أجل فتح الطريق أما الغرائز لكي تلبي رغباتها دون ضابط، فتلبية الفرد لرغباته بصورة مطلقة هو في حقيقته تحقيق لمصالح مؤسسة العولمة التي تبيع كل شيء من الطعام إلى الجنس وإذا طالب الفرد في إطار حريته بشيء غير موجود فالمؤسسة الاقتصادية على استعداد لتحقيق ذلك ما وجدت السوق وما وجد المستهلك.يقول رحمه الله: «الفلسفة المادية طاعون معنوي، حيث سبّبت في سريان حمّى مهلكة في البشرية، وعرّضها للغضب الإلهي. فكلما توسعت قابلية التمرد والانتقاد - بالتلقين والتقليد - توسّع ذلك الطاعون أيضاً وانتشر.فانبهار الإنسان بالعلوم، وانغماره في تقليد المدنية الحاضرة أعطاه الحرية وروح الانتقاد والتمرد، فظهر الضلال من غروره.»(٦)

- ثانيا تكسير مبادئ العدالة الاجتماعية محليا ودوليا، فمحليا نلاحظ استفحال الفقر والفوارق الاجتماعية بين طبقات المجتمع الواحد، حتى ليخيل للمرء أن المجتمع الواحد مقسم إلى كيانات صغيرة داخل الدولة الواحدة، لا علاقة تربط الواحد بالآخر فكل طبقة تعيش في عالمها الخاص بها وتنظر إلى الطبقة الأخرى نظرة ازدراء، وأما دوليا فيتجلى في انقسام العالم إلى قسمين، قسم يدير شؤون العالم وفق نمط اقتصادي وسياسي يخدم مصالحه، وقسم مسخر لتحقيق مصالح القسم الأول، الذي تقتضي مصالحه بقاء القسم الثاني تابعا لا حق له في اللحاق بالقسم الثاني.

- ثالثا تشجيع المذاهب الفكرية الضالة، والمظاهر المدنية التي تخدم

---

(٦) اللمعات: ص ٨٧٧.

مصالح القسم الأول، والعمل على خلق فئة مجتمعية تدين بالولاء الفكري والثقافي إلى درجة اعتبار ذلك دينا وحيدا يجاهد من اجله وتصاغ المواثيق والقوانين لإنجاحه، والغاية هي التبشير بثقافة لا تؤمن بالانسجام والانضباط، ولذلك تدعو إلى تكسير التراتبية المنسجمة والنظام، وتشجع ذلك بكافة الوسائل، ويتدعم ذا التيار بخلفية فلسفية جند لها مفكرون وفنانون وساسة يبشرون بها ويضعون لها الإطار النظري الذي يرسم لها منهج التحقق، وتتلخص مقومات هذا المذهب في تعظيم الفوضى والرفع من شأنها، لأن الانسجام لا وجود له إلا في الفوضى. يقول مستخلصا حقيقة هذه الثقافة الجديدة: « يا أهل الكتاب.. يا أهل الكتاب" حتى كأن ذلك الخطاب موجّه إلى هذا العصر بالذات إذ إن لفظ " أهل الكتاب " يتضمن معنى: أهل الثقافة الحديثة أيضا! فالقرآن يطلق نداءه يدوّي في أجواء الآفاق ويملأ الأرض والسبع الطباق بكل شدة وقوة وبكل نضارة وشباب ...

فمثلاً: إن الأفراد والجماعات مع انهم قد عجزوا عن معارضة القرآن إلاّ أن المدنية الحاضرة التي هي حصيلة أفكار بني البشر وربما الجن أيضا قد اتخذت طوراً مخالفاً له وأخذت تعارض إعجازه بأساليبها الساحرة. فلأجل إثبات إعجاز القرآن بدعوى الآية الكريمة (قل لئن اجتمعت الإنس والجن..) لهذا المعارض الجديد الرهيب نضع الأسس والدساتير التي أتت بها المدنية الحاضرة أمام أسس القرآن الكريم.»[(٧)]

لقد كان النورسي رحمه الله حريصا على تنبيه الأنفس من خطر الوقوع في هامش الحياة الدنيا ولم يفتر خطابه عن تذكير نفسه قبل الأنفس الأخرى من مغبة الركون للحياة الدنيا، وكأنه كان يعيش حالة من الكشف عما سيأتي به

(٧) الكلمات: ص ٤٧١ ـ ٤٧٢.

الزمن المستقبل، فكلامه يصلح لوصف عدد واسع من أبناء هذه الأمة إن لم نقل جميع أفراد المجتمع الإسلامي والعالمي، فإذا كانت مؤسسة العولمة تجتهد من أجل ربط الإنسان في كل مكان بالمظاهر المادية لهذا العالم بالصورة التي بينا سابقا، فإن النورسي يستبق الأزمة فيشخص الداء تشخيصا مباشرا وواضحا على أساس نظرة قرآنية جلية وواضحة، يقول رحمه الله مخاطبا النفس:

« أيتها النفس! لا تقلدي أهل الدنيا، ولا سيما أهل السفاهة وأهل الكفر خاصة، منخدعةً بزينتهم الظاهرية الصورية، ولذائذهم الخادعة غير المشروعة، لأنك بالتقليد لا تكونين مثلهم قطعاً، بل تتردين كثيراً جداً، بل لن تكوني حتى حيواناً أيضاً، لأن العقل الذي في رأسك يصبح آلة مشؤومة مزعجة تنزل بمطارقها على رأسك...

فيا نفسي الأمارة بالسوء!

إذا قلت: أنا لا أريد أن أكون أجنبيا بل حيواناً، فلقد كررنا عليك القول يا نفسي! إنك لن تكوني حتى كالحيوان، لأنك تملكين عقلاً. فهذا العقل - الجامع لآلام الماضي ومخاوف المستقبل - يُنزل ضرباتٍ موجعة وصفعات مؤلمة برأسك وعينك، فيذيقك ألوف الآلام في ثنايا لذة واحدة، بينما الحيوان يستمتع بلذة غير مشوبة بالآلام. لذا إن أردت أن تكوني حيواناً فتخلّي عن عقلك أولاً وارميه بعيداً، وتعرّضي لصفعة التأديب في الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ : ١٧٩) »[٨]

(٨) الكلمات: ص ٤١٧ ـ ٤١٨.

لا ينبغي فهم هذا الكلام أن النورسي يدعو إلى التخلي عن الحياة والركون إلى التكايا والاختلاء في الزوايا، وقصر الحياة على العبادة وترك البناء الذي أمر به المسلمون وما فتئت الآيات القرآنية تؤكده وتلح عليه، ولذلك فالدعوة إلى ترك الحياة الدنيا بصورة مطلقة لا ينسجم مع حقيقة التصور وطبيعته، لكن الحب يجب أن يتحول إلى عنصر بناء يبني الآخرة، يقول رحمه الله:

«والحياة أيضاً التي وهبها الله سبحانه وتعالى لك وللإنسان، هي رأس مال عظيم تستطيع أن تكسب به الحياة الأخروية الباقية. وهي كنز عظيم يحوي أجهزة وكمالات خالدة.. من هنا فالمحافظة عليها ومحبتها من هذه الزاوية، وتسخيرها في سبيل المولى عز وجل تعود إلى الله سبحانه أيضا.

ثم إن محبة الشباب وجماله ولطافته، وتقديره من حيث إنه نعمة ربانية جميلة، ثم العمل على حسن استخدامه، هي محبة مشروعة، بل مشكورة.

ثم محبة الربيع والشوق إليه تكون في سبيل الله ومتوجهة إلى أسمائه الحسنى، من حيث كونه أجمل صحيفة لظهور نقوش الأسماء الحسنى النورانية وأعظم معرض لعرض دقائق الصنعة الربانية البديعة.. فالتفكر في الربيع من هذه الزاوية محبة متوجهة إلى الأسماء الحسنى.

وحتى حب الدنيا والشغف بها ينقلب إلى محبة لوجه الله تعالى فيما إذا كان النظر إليها من زاوية كونها مزرعة الآخرة، ومرآة الأسماء الحسنى، ورسائل ربانية إلى الوجود، ودار ضيافة موقتة (وعلى شرط عدم تدخل النفس الأمارة في تلك المحبة). ومجمل القول:

اجعل حبك للدنيا وما فيها من مخلوقات بالمعنى (الحرفي) وليس بالمعنى (الاسمي) أي لمعنى ما فيها وليس لذاتها. ولا تقل لشيء: " ما أجمل هذا " بل

قل: "ما أجمله خلقاً " أو "ما اجمل خلقه"! وإياك أن تترك ثغرة يدخل منها حبٌ لغير الله في باطن قلبك، فان باطنه مرآة الصمد، وخاص به سبحانه وتعالى.»[٩]

من هنا يصبح حب الدنيا مرتبطا بالآخرة وليس بالدنيا في حد ذاتها، فالإنسان في التصور الإسلامي وكما أقر النورسي ذلك لا يبني الدنيا من أجل الدنيا بل يبنيها وعينه على الآخرة، ولنا في المنهج النبوي خير وسيلة يمكن الاسترشاد بها في مواجهة مشكلات هذا العصر ومعضلاته، وأظن بأن النورسي قد تمكن إلى حد بعيد من استيعاب هذا المنهج، واستيعاب المقومات التي يرتكز عليها، وعمل على نقلها إلى إنسان العصر الحديث، ومن هنا نفهم لماذا قرر النورسي في فترة من حياته أن يعلن ميلاد سعيد الجديد ليضرب صفحا على جل مواقف سعيد القديم وبعض أفكاره، وهذه المرتكزات هي استيعاب الكنوز المعنوية للقرآن الكريم، مع العمل على نقل حقيقة هذه المعاني إلى القلوب.

---

(٩) الكلمات: ٧٥٦ ـ ٧٦٦.

من شروط النهوض
عند الأستاذ بديع الزمان النورسي
معالم في الأخلاق والإيمان

عبد العزيز فارح
كلية الآداب، وجدة
المغرب

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا رسول الله الذي أنقذ البشرية العاثرة من جور الأديان وتسلط الإنسان والأعراف، لتتفيأ ظلال دوحة الإسلام وتنعم بعدله وأمنه، وصفاء عقيدته.

وبعد ،

فإن الحديث عن الأستاذ بديع الزمان النورسي حديث عن رجل ترك بصمات متميزة في مدرسة الإحياء وهو رائد من روادها وعلم شامخ بين أعلامها صاحب فكر ثاقب، وتحليل عميق يصاحب ذلك صحبة شبه دائمة للقرآن يستدر منه المعاني، ويستمد منه المدد والأنس وجذوة الإيمان المتقدة، فتبلورت لديه بفضل ذلك نظرة صحيحة إلى الواقع، ومعالم النهوض وأخذ زمام الريادة كما كانت ردها من الزمان عند الأسلاف.

الإيمان مصدر القوة ومنبع الأخلاق.

غالب كلام الأستاذ بديع الزمان النورسي يدور حول الإيمان وإحيائه وتجديده والثبات عليه وجعله أساس التفكير ومنبع القيم والأخلاق ومحدد المسير الصحيح، ونقطة التساند والانطلاق نحو الأفضل، والجنة التي تقي شر العواصف التي تذهب بالضعيف والغافل... ولذلك ينصح الأستاذ النورسي أهل الإسلام بوجوب التشبث بإسلامهم فيقول: فيا أهل الإسلام: إن نقطة استنادنا تجاه المصائب والدواهي التي ألقت بثقلها العظيم على العالم الإسلامي هي الإسلام الذي يأمر بالاتحاد النابع من المحبة، وبامتزاج الأفكار الناشئ من المعرفة وبالتعاون الذي تولده الإخوة"[١].

ويقول في موضع آخر "أيها المسلم لا ترخ يدك عن الإسلام الذي هو حامي وجودنا وكياننا تجاه الدمار الذي تولده النتيجة المخيفة لتقدم أوربا، بل عض عليه بالنواجذ واستعصم به بقوة وإلا فمصيرك الهلاك"[٢].

وغياب الإيمان أو ضعفه وفتوره بله خيانته من أسباب تخلف الأمة عن الالتحاق بالركب وفي هذا يقول الأستاذ النورسي:" إنني أظن أن الباعث على ذل هذه الأمة أكثر من الجهل هو الذكاء العقيم غير المرافق لنور القلب..."[٣].

كان اعتماد الأستاذ سعيد النورسي القرآن والسنة مصدرا لأفكاره بل مشروعه النهضوي، وميزانا لفهم الواقع ونقده، لكن بنزعة تجديدية وواضحة وقوية وصامدة- في مرحلتي جهاده واجتهاده- أي مرحلتي النورسي القديم والجديد- نابعة عن إيمانه القوي وحسن فهمه وامتثاله للقرآن والسنة، وثباته

---

(١) صيقل الإسلام، ص٣٧٠.
(٢) المصدر نفسه، ص٣٢٧.
(٣) المصدر نفسه، ص ٣٧٠.

العتيد والعنيد أمام الأحداث المتسارعة، والابتلاءات المتعددة، والإغراءات الكثيرة...مبرهنا بذلك في تجسيد حي أن الاستهداء بالقرآن والسنة يولد طاقة جبارة تكون صناع الحياة: الفرسان البناة بالنهار الرهبان بالليل.

وقد يتساءل من يسمع هذا الكلام أو يقرأ شيئا عن سيرته الذاتية عن علاقته بالتصوف والطرقية. فأقول: إن الأستاذ سعيد النورسي متصوف، لكنه مباين لمعشر المتصوفة في تجربته ونهج سلوكه، فالفارق بينه وبين طوائف المتصوفة شاسع جدا؛ فروح الأستاذ سعيد النورسي اجتهدت في التجرد والتواصل مع الله تعالى كما سيأتي، وظلت في ذات الوقت مرتبطة بواقع الأمة، متوترة بما تراه من انتكاسات وهزائم، متحفزة إلى إنقاذها والرفع من شأنها وسط الأمم، إنه الدور الكلي للمسلم في الحياة[٤] إنه الفرق بين أخوين: عابد وعامل ورد بيانه في الحديث النبوي، حينما قال النبي ﷺ لعابد ذاكر وقد علم أن أخا له يعوله: "أخوك أعبد منك".

كان الأستاذ النورسي يرى الدولة العثمانية بصفتها حارسة للخلافة ورمزا للوحدة قد وجهت إليها الطعنات القاتلة فكانت الاعتداءات الروسية واليونانية، وكان الاحتلال البريطاني، ثم كانت حكومة الاتحاد والترقي التي أجهزت على البقية مما أبقاه الحلفاء حيث سخرت وسائل الإعلام والدعاية ومحاكم التفتيش والقوانين الجائرة لمحاربة التدين وإطفاء نور الإيمان في القلوب، ومحو الإسلام من الواقع، وبث الأفكار العلمانية والإلحادية التي تنشئ أجيالا غريبة عن الإسلام إذا ذكرته ذكرت بعضا منه بوصفه تراثا يزار في المتاحف لذلك كان إنقاذ الإيمان في الواقع هو المسألة الرئيسة التي لا تحتمل التأجيل، وهاهو النورسي يقول على رؤوس الأشهاد: "إنني لست بشيخ طريقة، فالوقت الآن

(٤) ينظر في هذا كتاب النورسي في رحاب القرآن للدكتور عشراتي سليمان، ص١٣٥ وما بعدها.

ليس وقت طرق صوفية، بل وقت إنقاذ الإيمان"[٥] ويحذر المسلمين في مرة أخرى فيقول: "إن عصرنا هذا هو عصر انحطاط الإيمان لا حفظ الطريقة، إن كثيرين يدخلون الجنة بغير الانتماء إلى طريقة صوفية، ولكن أحدا لا يدخل الجنة بغير إيمان"[٦].

لكن ما درجة هذا الإيمان وما هي أسباب زيادته لمواجهة هذه المعضلة الكبرى والتحديات العظمى زيادة على مواجهة نوازع النفس والإغراء والضعف والإحساس باليأس والهزيمة... يعبر عن بعض ذلك الأستاذ النوريسي واصفا حالته في المعتقلات الروسية حيث الجو الموحش في شمال شرق روسيا والبرد القارس وكل ما يشيب له الولدان: "ورغم أنني لم أكن أعد نفسي شيخا بعد ولكن من يرى الحرب شيخ، حيث أيامها يشيب من هولها الولدان".

الإيمان يزيد وينقص كما هو معروف، يزيد بالاجتهاد في العبادة وبالطاعات والقربات وخدمة الأمة، وينقص بالمعاصي والبعد عن الله والانشغال بالدنيا لا يفكر في إصلاح واقع بئيس، ولا إنقاذ وطن يستباح، ولا أمة تذبح... والقائد المربي أحوج الناس إلى التزود بما يقوي الإيمان ويحفظه ويشحذ العزيمة.. فيكون الثبات على المبدأ، والصبر على البلاء، ودفع اليأس ومنع تسرب فكر الاستسلام والانكسار، وتبرير الواقع المرير، إن الإيمان يقتضي أن يتعهد لتبقى جذوته متقدة تمنع أن تلابس الروح غفلة أو فتور.

ولذلك كان من عادة الأستاذ بديع الزمان الإكثار من التهجد والتضرع إلى الله تعالى خمس ساعات كل ليلة حتى سن الثمانين حيث بدا يقضي ساعتين من الليل في التهجد والدعاء ... ولم يكن يتخلف عن ذلك ولو كان في المعتقلات

---

(٥) بديع الزمان النورسي نظرة عامة عن حياته، ص٧٣.

(٦) المصدر نفسه، ص٨٣.

أو المنفى كما وقع في فترة اعتقاله بأمر من حكومة مصطفى كمال سنة ١٩٢٥ في مدينة بوردور مدة سبعة أشهر حيث تفرغ للعبادة، وفي تأليف رسالة "المدخل إلى النور"، وكما وقع في طريق نفيه بعد ذلك في مستهل عام ١٩٢٦ إلى "بارلا" على متن زورق شراعي حيث قام يصلي فريضة العصر في وقتها في خشوع أثر فيمن كلفوا بترحيله إلى منفاه(٧).

وفي بارلا ذاتها وطيلة إقامته بها كان يقضي الليالي متعبدا ومتضرعا إلى الله تعالى ومتفكرا في عظمة كونه، وفي إعجاز كتابه وأسرار آياته، وكان ثمرة ذلك رسائل النور.

هكذا إذن يمكن أن نلخص فكر الأستاذ النورسي ومنهجه في وجوب نشر الوعي الاجتماعي بتجديد الإيمان، واستخلاص أسرار القرآن ومعانيه التربوية والتوجيهية.

تشخيص الداء أول خطوة في وصف العلاج أو الفقه الجيد للواقي.

عاش الأستاذ النورسي في مرحلة مضطربة كانت تموج فيها الأحداث موجا، وتوضع الخطوط العريضة والكبرى للعالم المعاصر، والمفكر الموفق والمربي الناجح هو من أدرك حقيقة ما يجري حوله، وكان ذا معرفة بخبايا القوى الغالبة، وخفايا الحضارة الظاهرة، وانطلاقا من هذا نقرأ في رسائل النور ما يثبت حسن قراءة الأستاذ النورسي لأحداث عصره في تركيا وفي العالم الإسلامي، وإدراكه لحقيقة الحضارة الغربية وأسسها وأسباب قوتها وضعفها، فهاهو يختصر مرة في كلام قصير حالة عصره وأهله ويصف في ذات الوقت العلاج قائلا:" عصر مريض، وعنصر سقيم وعضو عليل، وصفتها الطبية هي اتباع القرآن"(٨).

---

(٧) بديع الزمان النورسي نظرة عامة عن حياته، ص ٦١٦٢.
(٨) المكتوبات (نوى الحقائق) ص ٦٠٠.

وكان الأستاذ النورسي يعي مقاصد المستعمر في إشعال نار الفرقة بين المسلمين دونما وعي منهم، فيبث أفكار النعرات القبلية ويسلط بعضهم ضد بعض فيحقق بهم النصر وينعم بالغنائم، وكان من جملة النصر النهاية التمزيقية للأمة وبلقنتها فكرا وأوطانا ويحذر المسلمين من الغفلة والثقة العمياء وتغييب العقل وبعد النظر فيقول: "إن التودد إلى الوحش الجائع لا يثير شفقته، بل يفتح شهيته، ثم يعود ويطلب منك أجرة أنيابه وأظفاره"[٩].

ويقدر جمال هذه العبارة بأسلوبها الممتع، وتمثيلها المقنع، ومعناها الصحيح، بقدر ما تثير في القارئ أو السامع المتأمل شجونا وأحزانا على واقعنا البئيس الذي تودد فيه أناس كثيرون إلى الوحش الجائع، وفتحوا له باب الحضيرة فافترس وشتت وأحدث الجراح العميقة والأعطاب الكبيرة وأخذ الأثمنة المعنوية والمادية الباهضة.

ومما يؤكد معرفته بواقع عصره وفهمه العميق للحضارة الغربية عرضه مقارنة بين أسس وخصائص المدنية الغربية والمدنية الإسلامية وهو عرض تسهل معه المقارنة ويظهر التميز، فيرى أن المدنية الغربية نقطة استنادها القوة، وأن هدفها المنفعة، وأن دستورها الجدال والصراع، وان رابطتها بين البشر العنصرية، وأن خدمتها للبشرية تشجيع الهوى.

وأما أسس المدنية الإسلامية فكالآتي:

نقطة استنادها الحق بدلا من القوة.

وهدفها الفضيلة بدلا من المنفعة

وجهة الوحدة فيها الرابطة الدينية والوطنية والصنفية بدلا من العنصرية والقومية.

---

(٩) الكلمات، ص ٨٥٠.

ودستورها في الحياة التعاون بدلا من الجدال والصراع،
وتضع الهدى بدلا من الهوى.

إذن فالتصور واضح عند الأستاذ النورسي، فالنهوض لا يكمن في جعل المدنية الغربية ملاذ المسلمين، ومرجعهم ومصدر حلول مشاكلهم الاقتصادية والسياسية ومراجعاتهم الفكرية والتربوية، إنها مدنية لا تخدم الإنسان من حيث أسسها ومنطلقاتها وإن هذبت بعض الأمور التطبيقية لتظهر خادمة لكرامة الإنسان محافظة على حقوقه.

ويؤكد في نص آخر أن من سمات الحضارة الغربية إغراق الإنسان في متطلبات لا يكاد يخرج منها ينقضي عمره وهو في دوامة الاستهلاك.

لكن ماذا يشترط في الجيل الذي يروم النهوض لبناء مدنية إسلامية جديدة أو لمقارعة مخاطر الحضارة الغربية الزاحفة؟ وأهل هذا الدين من الضعف والفرقة وعدم الالتزام بالدين ما يحول دون التبليغ الناجح والدعوة الموفقة.

الأخذ بأسباب التفوق المادي:

أمام هذه المفارقة يوصي الأستاذ النورسي الأمة بالأخذ بأسباب التفوق المادي، لأن ذلك هو الذي يكفل لها الفاعلية، ويكفل لها قدرة التأثير، فالأمم- كما يقول: لا تتبع ولا تعبأ إلا بالأمة القوية المتحكمة في المادة وفي مصيرها، وبما أننا أمة تبليغ، فالتبليغ بات اليوم العلم ولابد لنا من تكنولوجيا رائدة، وبات أيضا احتداء، إذ لابد من المكانة المكينة التي تغدو فيها سيرتنا محل أسوة واقتداء"[١٠].

وفي إطار جوابه عن سؤال عن أسباب تأخر المسلمين وعجزهم يبين أن سبب ذلك أمران:

(١٠) النورسي في رحاب القرآن للدكتور عشراتي سليمان، ص٣٥.

الأول نفسي وعملي راجع إلى الفتور في السعي ومخالفة الأمر الرباني القاضي بـ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾ (النجم: ٣٩) وإلى انطفاء جذوة شوق الكسب المستفاد من الأمر النبوي [الكاسب حبيب الله] وحصل هذا الانقلاب الفكري والتقاعس العملي بفعل تلقين ثقافة الخمول والتواكل وملابسة البطالة والفكر المحطم السلبي من قبل "وعاظ جاهلين لم يدركوا أن إعلاء كلمة الله في الوقت الحاضر يتوقف على الرقي المادي، ولم يفرقوا بين قناعتين بعيدتين عن بعضهما: القناعة في التحصيل والكسب، وهي المذمومة، والقناعة في المحصول والأجرة وهي الممدوحة..."[(١١)].

السبب الثاني هو النفور من العمل اليدوي زراعة وصناعة وغير ذلك والإقبال على الوظيفة الحكومية، ولذلك "فالطريق المشروع للمعيشة والسبيل الطبيعي والحيوي إليها هو الصناعة والزراعة والتجارة، أما الطريق غير الطبيعي فهو الوظيفة الحكومية والإمارة بأنواعها...."[(١٢)]

على أن الأستاذ النورسي وهو رجل القرآن ورجل الإيمان (أو خادم القرآن والإيمان كما نطق بذلك أمام محكمة استانبول مستهل عام ١٩٥١م) لا يمكن أن يدعو إلى اجتهاد مادي في فكاك عن الاجتهاد الإيماني لأن الخواء الروحي هو الذي يؤدي إلى كوارث رغم التفوق المادي.

الاجتهاد الإيماني مرتبط بالعلم ولا يقبل الوعظ السلبي والدعوى المنفرة.

ينحو الأستاذ النورسي باللائمة على جمهرة من المفسرين والكتاب والوعاظ الذين باشروا العملية التأويلية في غياب الأدوات الكافية، على رأسها العلوم الشرعية وعلوم الآلة، ويحذر من بعض المقررات المتداولة في تفسير القرآن، وهي متهافتة

---

(١١) صيقل الإسلام، ص٤٠٣.

(١٢) المصدر نفسه.

أو بنيت على مجرد الحدس الظني أو ما تردده الأذهان بفعل المثاقفة والتمازج مع الآخرين ولم تسلم من آثار الأسطورة والتصورات الخيالية"(١٣).

وينبه إضافة إلى ذلك إلى بيداغوجية الوعظ السلبي التي أساءت إلى الدعوة الإسلامية وإلى تفسير القرآن الكريم والتراث الإسلامي " فالوعاظ كما يقول: لا يملكون موازين، ويطلقون كلامهم جزافا فتسببوا في حجب كثير من حقائق الدين النيرة، ..وفي أن تصبح المعجزة الباهرة التي كالشمس مخفية كنجم السهى، وتجعل البرهان للنبوة الذي هو كالقمر مخسوفا، وفتحت أبواب حجج تافهة للمنكرين..."(١٤).

إنهم الوعاظ والدعاة الذين يسلكون سبل التهويل والتفظيع ردعا للنوازع أو الذين يشيعون تعاليم وتربية انحرفت بالإنسانية نحو وجهة الخمول والتواكل.وملابسة البطالة والرضى بالخصاصة. والذين أساؤوا من حيث ظنوا أنهم أحسنوا بفظاظة ظاهرة وقساوة زائدة لم تتركا من أثر إلا تنفير الناس من الإسلام، وفي هذا يقول:"إن خدمة الدين وسوق الناس إليها إنما تكون بالحث على الالتزام وتذكير أصحابه بوظائفهم الدينية، وبخلاف ذلك فإن مخاطبتهم بأنكم ملحدون يسوقهم إلى التعدي"(١٥).

ويشبه هؤلاء في تنفير الناس من الإسلام من يستغله لمزايدات سياسية أو مسلكية، أو يستخدمه في غير مقاصده من أصحاب الأغراض غير البريئة.

إنشاء جامعة الزهراء ومدارسها.

تلك النظرة التقويمية لمناهج التعليم ووجهة التأليف وطرق الوعظ والدعوة والتبليغ أعقبتها عند الأستاذ النورسي اقتراحات نظرية وأخرى عملية، تمثلت

(١٣) انظر المقدمة السادسة من كتاب صيقل الإسلام من ص ٤٢ وما بعدها.
(١٤) صيقل الإسلام، ص٤٦.
(١٥) المصدر نفسه، ص٣٦٢.

العملية في رسائل النور وفي كلماته في شتى المناسبات وأمام المحاكم، وتمثلت أيضا في مشروعه لبناء مؤسسة تعليمية تسير على نهجه ووفق نظرته، إنها مؤسسة الزهراء أو جامعة الزهراء مع روافدها: المدارس الدينية في أنحاء تركيا وذلك لتدريس العلوم الدينية والحديثة، وتفادي سلبيات التعليم والدعوة والتربية التي مر الإلماع إليها، نعم جامعة إسلامية على غرار جامعة الأزهر تكون منارة في آسيا وجسر عبور للإسلام إلى أوربا وكذلك لتتصافح العلوم النابعة من الفلسفة مع الدين وتتصالح الحضارة الأوربية مع حقائق الإسلام مصالحة تامة..."(١٦).

عوائق النهوض النفسية والاجتماعية

المشاكل النفسية والاجتماعية عوائق لبناء الحضارة أو لاستمرارها الطبيعي، ولذلك كان على العقلاء من بناة الحضارة، المعتبرين بدروس التاريخ الحضاري للأمم والشعوب قديمها وحديثها أن يعالجوا أولا ودوما الأمراض النفسية من أنانية وحب النفس والجريان مع الأهواء والاستغلال والأثرة والدعة والركون إلى الدنيا " إنما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا".

وقد حذر الأستاذ النورسي من هذه العوائق في طريق بناء الحضارة أو الحفاظ عليها فقال: "إخواني ربما أموت قريبا، فإن لهذا العصر مرضا داهما وهو الأنانية وحب النفس، واشتهاء قضاء حياة جميلة في ظل مباهج وزخارف المدنية الجذابة وأمثالها من الأمراض المزمنة.."(١٧).

وإنه لكلام مجرب ناصح أمين خبر الدنيا وقرأ بوعي ما يختلج في عصره، وما يميز الحضارة الغربية الغالبة.

---

(١٦) انظر ص ٤٧٩ وما بعدها من كتاب سيرة ذاتية للنورسي.
(١٧) بديع الزمان سعيدا النورسي/ سيرة ذاتية، ص ٤٧٤.

اليأس والتشاؤم

ولما كان الأستاذ بديع الزمان مربيا ومفكرا كبيرا وقارئا بامتياز للقرآن الكريم، والقرآن الكريم كتاب علم وأخلاق وخطابه خطاب موجه للناس كافة حكاما ومحكومين، مؤمنين وكافرين، فإن مشروعه – أي الأستاذ النورسي- لم يغفل الجانب النفسي وجانب الأخلاق. فالأمة المهزومة نفسيا لا تستطيع النهوض، والأمة التي يرسم لها طريق الاستهلاك والاتباع لا الإنتاج والابتكار هي أمة قد رهنت حاضرها ومستقبلها بغيرها.

ولما كان اليأس والتشاؤم بسبب الأدواء الكثيرة والضربات المتتالية محبطا للعزائم وجلبا للانكسار والاستسلام، فإن القائد الذكي والمربي الناجح هو الذي ينفخ في أتباعه وتلاميذه روح الأمل ويبث فيهم تباشير النصر والانعتاق من أسر التبعية والخروج من نفق التخلف والهوان وبناء على معطيات واقعية ونصر موعود بشروط منجزة وليس على أوهام أو أحلام ورؤى مغالطة للأتباع.

وهاهو الأستاذ النورسي يزرع أمل حلول اليوم السعيد المنشود فيخاطب تلاميذه قائلا: " لقد بدأت تباشير ذلك الفجر في البزوغ منذ أربعين عاما، وقد بزغ فجرها الصادق... أو هو على وشك البزوغ، وحتى إذا كان هذا الفجر كاذبا فسيطلع الفجر الصادق بعد ثلاثين أو أربعين عاما إن شاء الله".

ويحذر في موضع آخر العاملين في حقل الدعوة والإرشاد من اليأس والتشاؤم فيقول: إن الأمل يبعث الحياة في الناس، واليأس يقتلهم"(١٨).

ويذكر في مناسبة أخرى بأن من أسباب نهضة أوربا تميز النصارى بالتفاؤل والأمل، أما "المسلم فمستنكف عن المدنية لا يكترث بها، ويتحرج في قبولها، فإذا ما بدلت الصورة فالوضع يتبدل".(١٩)

---

(١٨) نفسها، ص٩٠.
(١٩) صيقل الإسلام ٣٧٣.

الدعة والأنانية والركون إلى حب النفس

يحذر الأستاذ النورسي من أخلاق مذمومة تعيق البناء الحضاري ومن أمراض كثيرة تفسد المشروع النهضوي، ويبين بعضها قائلا ناصحا أتباعه "إخواني ربما أموت قريبا، فإن لهذا العصر مرضا داهما، وهو الأنانية وحب النفس، واشتهاء قضاء حياة جميلة في ظل مباهج وزخارف المدنية الجذابة وأمثالها من الأمراض المزمنة"[٢٠].

وبعد عودته من الأسر سكن قصرا بأجمل منطقة بأستانبول، وكانت الأسباب المادية رهن إشارته، فكان يحس أحيانا بأنه أسعد إنسان في العالم... ولكن أثر تربيته الروحية يوقظه من هذا الحلم، وينبهه إلى أن تلك الأسباب المادية خادعة لا تدوم وليست غاية له، يعبر عن ذلك فيقول: "فالصحوة الشديدة التي صحوتها برؤية الشيب جعلتني أرى أولا فناء ما أرتبط به من الأشياء المعرضة للفناء والزوال، ثم التفتت إلى نفسي فوجدتها في منتهى العجز عندما صرخت روحي وهي التي تنشد البقاء دون الفناء وتتشبث بالأشياء الفانية متوهمة فيها البقاء، صرخت من أعماقها: مادمت فانية جسما فأي فائدة أرجوها من هذه الفانيات؟ ومادمت عاجزة فماذا أنتظر من العاجزين؟ فليس لدوائي دواء إلا عند الباقي السرمدي، عند القدير الأزلي"[٢١].

كلمات عميقة المعنى تعبر عن استيعاب لروح الدين ومقصده الأكبر، وعنوان على سمو الإيمان وعلوه وغلبته، فلا تبدو معه الدنيا شيئا ذا بال يتشبث به.

يتكرر مثل هذا حينما حاول وزير الداخلية في عهد السلطان عبد الحميد استمالته بالمال رجاء سكوته ورجوعه إلى بلده قائلا: إن السلطان يخصك

---

(٢٠) سيرة ذاتية، ص ٤٧٤.
(٢١) اللمعات ٣٦٦.

بالسلام مع مرتب بمبلغ ألف قرش، وعندما تعود إلى بلدك سيجعل مرتبك ثلاثين ليرة..." فرد الأستاذ النورسي قائلا: لم أكن أبدا مسول مرتب، ولن أقبله ولو كان ألف ليرة لأنني لم آت لغرض شخصي وإنما لمصلحة البلد، فما تعرضون علي ليس سوى رشوة السكوت... إنني أريد أن أوقظ أبناء الأمة، ولا أقوم بهذا العمل إلا لأنني فرد من هذا البلد لا لأقتطف وراءه مرتبا[٢٢].

تأملت طويلا في هذا الرد وتذكرت حالات كثيرة من سكوت على منكر أكبر، أو بيع لأوطان بأكملها، أو رهن لثرواتها، أو تفريط في مقدساتها وإسهام في النيل من ماضيها وتراثها ومقومات نهوضها...

الاختلاف وتفرق المسلمين سبب الهزيمة

كان الأستاذ بديع الزمان النورسي أمام معضلة كبيرة، ومفارقة عجيبة وهي ضعف المسلمين رغم وجود أسباب قوتهم، وتفرقهم رغم كثرتهم ووجود أسباب وحدتهم دينا وتاريخا وحضارة ولغة، وهو الوضع المستمر في عصرنا، كيف ننتقل من النظري إلى الواقع العملي، وإلى تفعيل العوامل الإيجابية لتتحقق على أرض الواقع فتتغير العقول والقلوب وتتحرك الجوارح ويترك المقعد الذي كاد أن يكون دائما، مقعد الإشادة بالماضي التليد، والبكاء على الحاضر البئيس، والحيرة من كيفية إيجاد الخيط الرفيع بين الأفكار الجميلة والأفعال الجليلة، ولذلك يحذر الأستاذ النورسي من الاختلاف ويبين أنه من أسباب الهزيمة فيقول: "إنه لمن العجب وموضع الأسف إذ بينما يضيع أهل الحق والحقيقة القوة العظمى في الاتفاق بالاختلاف فيما بينهم، يتفق أهل النفاق والضلالة للحصول على القوة المهمة فيه- رغم اختلاف مشاربهم- فيغلبون تسعين بالمائة من أهل الحقيقة مع أنهم لا يتجاوزون العشرة بالمائة"[٢٣].

---

(٢٢) بديع الزمان النورسي، نظرة عامة عن حياته، ص ٢٩٣٠.
(٢٣) سيرة ذاتية، ص٣١٣.

ويدعو الأستاذ في المقابل إلى التساند وهو النتيجة الجيدة للأخوة الصادقة والاتحاد الصحيح حيث تتوحد الأفكار والأفعال يؤطرها ويغذيها الإيمان لتصل إلى درجة البنيان المرصوص أو الجسد الواحد حيث الترفع عن حظوظ النفس، أو مصالح القبيلة، أو الجنس، أو الحزب، ويوجه هذا النداء إلى المسلمين كافة فيقول:"فيا أهل الإسلام إن نقطة استنادنا تجاه المصائب والدواهي التي ألقت بثقلها العظيم على العالم الإسلامي هي الإسلام الذي يأمر بالاتحاد النابع من المحبة، وبامتزاج الأفكار الناشئ من المعرفة، وبالتعاون الذي تولده الأخوة"[٢٤].

ويؤكد في نص آخر فضل الاتحاد والتساند فيقول: "إن سر تساند المؤمنين في عباداتهم، ودعواتهم في جماعاتهم سر عظيم وأمر جسيم، إذ يصير به كل فرد كالحجر المرصوص في البناء المرصوص يستفيد من إخوانه في الإيمان بألوف ألف ألف ما يستفيد من عمل نفسه، فإذا نظمهم سلك الإيمان يصير كل لكل، وللكل شفيعا، وداعيا، ومسترحما، وراجيا، ومادحا...[٢٥]

عني الأستاذ النورسي بهذه المسألة في أكثر من موضع في كتبه وهاهو يؤكد في موضع آخر أثر التساند في حياة الأمة والحفاظ على إيمانها في واقعها، وصمام أمان من تيارات الضلالة والغواية "إعلموا يا إخواني أن أهم أساس لقوتنا ونقطة استنادنا هي التساند"[٢٦] ويقول أيضا: "إن سبب اهتمامي البالغ بتساندكم وترابطكم لا ينحصر في منافعه التي تكسب رسائل النور وتمسها، وإنما لعوام المسلمين فهم أحوج ما يكونون إلى نقطة استناد وإلى حقيقة ثابتة عضت عليها جماعة بالنواجذ، فيركزون على تلك الحقيقة القاطعة للثبات تجاه

(٢٤) صيقل الإسلام، ص٣٧٠.
(٢٥) المثنوي العربي النوري، ص ٤٠٦٤٠٧.
(٢٦) الشعاعات ٣٧٩.

تيارات الضلالة الرهيبة، حيث تكون لهم حجة قوية، ومرشدا ثبتا، ومرجعا لا ينخدع ولا يتراجع ولا يتزعزع"[٢٧].

ويبين في ذات الوقت سر نهوض الغرب رغم ما يختلط بمدينته من سلبيات وتناقضات، إن مرد نجاح الغرب هو تماسكهم وتساندهم "فتلك النقطة، نقطة الاستناد، هي مدنية أوربا التي هي معسكر "كتلة مسلحة" وكنيستها العظيمة، وهي مستعدة في كل آن أن تنفخ الحياة في عروق رفقاء دينها الذين يمدون إليها أيديهم من كل صوب"[٢٨].

لا سبيل إلى تقديس الأشخاص أو أقوالهم

هذه قضية مهمة، وهي مما يجب أن تعطى لها الأولوية في التربية والتوجيه والإعلام، لأنها هي التي تكون أحيانا اللحمة التي توحد أفراد الأمة، وتمنع تفرقهم ونشوء العداوة ونشوب الاقتتال بينهم وهي التي تنجح الحوار وأما مع تقديس الأشخاص وتقديس أفكارهم وعدم استساغة مناقشتها ورد المردود منها، فينشأ التعصب الممقوت ويتفرق الصف الواحد إلى شيع ومذاهب تنشغل بالخلافات بينها وتستميت في الدفاع عن مواقفها وآرائها ورجالها وهي تردد: أنا أمثل الأمة أو الحقيقة وكلامي حق أو صواب، وكلام غيري باطل أو خطا وقديما قال الإمام الشافعي رحمه الله: هذا رأيي، وإذا صح الحديث فهو مذهبي واضربوا بقولي عرض الحائط". وقبله قال شيخه الإمام مالك قولة تناقلتها الأجيال- ومع الأسف لم يعمل بها كثير من أهل الفرق والأحزاب: " كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر".

في هذه المسألة وقف الأستاذ بديع الزمان موقفا حازما حتى لا يرفعه طلابه

---

(٢٧) الشعاعات ٣٧٩

(٢٨) صيقل الإسلام ٣٦٩.

الخلص ومحبون إلى مرتبة التقديس، فحينما رأى غلاف كتاب "تاريخ حياة الأستاذ النورسي" وهو عبارة عن صورة له غضب غضبا شديدا وقال: ما هذه الصورة؟ أنتم تهتمون بشخصيتي أكثر مما أستحق، فأنا لا أحسب نفسي...إنني لاشيء، أنا عدم، فلا تنتظروا مني شيئا من الخوارق..." تذكرت وأنا أقرأ هذا الموقف وأتأمل في هذا الكلام قولة الزعيم البوسني عزت بيكوفتش: إنكم تصنعون طواغيتكم، وتذكرت زعماء وأشباه زعماء، وأشباه مفكرين يصنعون لأنفسهم هالة التقديس ويأمرون بأن يجعلوا في الصدارة وأن "يحمدوا"، نسأل الله السلامة من الرياء وحب الزعامة، والرحمة والمغفرة لبديع الزمان الأستاذ سعيد النورسي، والتوفيق والسداد لطلابه ومن يخدمون فكره ورسائله.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الفهرس